محمود مدين
وإني سميتها مريم
(رحلة بحث عن الهوية)
دير البلح
حي الشجاعية
يافا
غزة
حي الشجاعية

إني سميتها مريم

رواية

تأليف

محمود مدين

عنوان الكتاب: إني سميتها مريم

الموضوع: روايـــــــة

تأليف: محمود مدين

تصميم غلاف: محمود مدين

رقم الإيداع بالدار : 2026/0539

الترقيم الالكتروني EBIN : 260511-1-45-60

الناشر:

أكاديمية الكاتب للنشر الإلكتروني

alkatebacademyforpublishing@gmail.com

01112357473

مصر

إني سميتها مريم

رواية

تأليف

محمود مدين

٢٠٢٦

إهداء

إلى العم رامي الغزاوي، علّ روحك وجدت سبيلها إلى الخلاص... مدين.

الذكريات تبقى حية، هي فقط تغفو قليلًا، لكنها تعاود الطفو كلما ألقيتَ بحصاة في قلب مستنقعها الراكد. أنا وأنت أحجار فوق رقعة شطرنج تدعى الحياة.

الزمان: شتاء عام ١٩٨٩م.

المكان: دير الأنبا بولا بمحافظة البحر الأحمر.

باحة واسعة مصممة على الطراز الروماني القديم، بأرضية رخامية مكونة من قطع "الفسيفساء" الصغيرة للغاية، تشكل لوحة سريالية مبهمة المعنى، تطل على بناء ضخم من الحجر مكون من طابقين، تحتل واجهته شرفات كثيرة ذات قضبان معدنية صليبية الشكل، كما يزين باحة الدير مجموعة من الشجيرات النادرة المعمرة.

كان الوقت منتصف النهار، رياح خفيفة تتراقص لها غصون الأشجار مع زخات "ودق" تبلل ثوب تلك السيدة الأسود، قصيرة القامة ذات الجسد النحيف، وهي تسرع الخطى فوق الأرضية المبللة بينما تحمل بين ذراعيها لفافة قطنية سوداء، يتدلى من جيدها قلادة صغيرة بنهايتها صليب صغير يتأرجح مع حركتها المضطربة.

صعدت ثلاث درجات حجرية ثم عرجت يسارًا حتى توقفت أمام أحدهم؛ كان شابًا في منتصف الثلاثينيات، يرتدي عباءة الرهبان السوداء ويغطي رأسه بقبعتها، كان ممتلئ الجسد قليلًا، وإذا ما نظرت إلى وجهه الأبيض المائل للحمرة ستجد شبهًا ملحوظًا بينه وبين تلك السيدة التي أمامه.

سارا سويًا دون حديث حتى جلسا فوق أحد المقاعد الحجرية الموجودة بالباحة. مر وقت من الصمت كلاهما ينظر أسفل قدميه؛ الراهب يبدو عليه التوتر، أما السيدة فتشي قسماتها بالانفعال كبركان يغلي أسفل سطح هادئ.

تشجع الراهب وأمسك دفة الحديث:

- هل أستطيع حملها؟ قال الراهب فلم تجبه السيدة، بل ابتعدت عنه قليلًا. سأل الراهب:
- ما الذي أتى بكِ إلى هنا يا ميرال؟ أجابت السيدة:
- بالتأكيد ليس اشتياقًا لك، أخبر صاحبك أن يكف عن إرسال الخطابات وإلا...
- وإلا ماذا يا ميرال؟
- وإلا وشيتُ بك وبه. قال بدهشة:
- تفعلين هذا بشقيقك وزوجك يا ميرال؟ قالت بلهجة حاسمة، لهجة من معه الحق:
- لستَ شقيقي، أو بمعنى أدق لم تعد كذلك، وهو ليس زوجي ولو كان آخر من بالعالم، أنا لم آتِ لأستعطفك بل لآمرك، تحدث معه وأخبره أن يكف عن مضايقتي. قال بلهجة بائسة:
- حسنًا يا ميرال سأخبره.

نهضت ميرال ثم تحركت نحو الخارج، سألها الراهب:

- كيف حال والدتي؟ قالت ميرال دون أن تنتظر ردة فعل شقيقها الذي دفن وجهه بين راحة يديه وجهش بالبكاء:
- توفيت منذ ثلاثة أشهر.

كانت عبراتها تعانق حبات الودق المتساقطة فوق زجاج نافذة الحافلة التي أقلتها عائدة بها إلى القاهرة مرة أخرى، هي لم تكن تكره شقيقها ولا حتى زوجها، بل أحبتهما كثيرًا وما زالت، لم يكن هينًا عليها أن ترى شقيقها بعد كل تلك الشهور دون حتى أن تسلم عليه، هي لا تعلم من أين أتت بكل تلك القسوة، لكنها تعلم أن ما عرفته وما مر عليها كان أكبر من قدرتها على الاستيعاب والتحمل. أفاقت من شرودها على صوت غطيط طفلتها الصغيرة، فضمتها إلى صدرها بحنان وأحكمت غطاءها.

مع حلول منتصف الليل كانت ميرال تقف أمام باب شقتها، أولجت المفتاح ثم أدارت مقبض الباب ودفعته للداخل، أغلقت الباب خلفها ثم تحسست موضع قابس الكهرباء لتضيء الشقة المكونة من ثلاث غرف. توجهت نحو غرفة النوم حيث وضعت الصغيرة الغافية كملاك فوق الفراش، ثم توجهت نحو المطبخ، أخرجت من المبرد شطيرة جبن، تناولت قضمة منها ثم وضعتها فوق الطاولة الرخامية وغادرت المكان.

كانت إحدى الغرف عبارة عن مكتب صغير، تزينه مكتبة خشبية صغيرة بها بعض الكتب التي لا تغادرها، جلست ميرال خلف طاولة المكتب الفارغ إلا من بعض قصاصات الورق المتناثرة وأقلام جف حبرها. جذبت مقبض درج المكتب ثم أخرجت مجلدًا صغيرًا، عبثت بأوراقه حتى تناولت ورقة ما صفراء اللون شرعت بقراءتها: (كانت المرة الأولى التي أراكِ بها، كنتِ تقفين مع زميلاتك كزهرة برية، كنتِ جميلة ومشرقة).

وضعت الورقة جانبًا ثم انتقيت غيرها: (حاولت أن أحدثكِ أكثر من مرة، لكن في كل مرة كنت أشعر بالخجل، حتى علمت أن زميلي "مجدي" هو شقيقك، فآثرت صداقته لأصل إليكِ).

وضعتها جانبًا هي الأخرى ثم أمسكت قصاصة صغيرة: (ميرال، أنا أحبك).

ما إن انتهت من قراءة تلك القصاصة حتى وضعت الأوراق بالمجلد مرة أخرى بعصبية، ثم تركته فوق المكتب وغادرت سريعًا.

كانت الرياح تعبث بخصلات شعرها الكستنائي وذيل ثوبها، بينما تقف بساحة انتظار عربات الأجرة خارج مطار "عطاروت" بجوار حقيبتها الصغيرة. كانت تضم فكيها كلما شعرت بالتوتر كحالها الآن؛ فلا يوجد بصيص أمل لظهور شبح عربة في هذا المطار المهجور.

راحت تطوي الأرض أسفل منها ذهابًا وإيابًا حتى لاح لها شبح عربة قادم من أول الطريق. شعرت بالحماسة، حملت حقيبتها بيدها اليسرى ثم وقفت تنتظرها حتى توقفت أمامها.

إلى أين يا آنسة؟

قال سائق العربة ذلك العجوز الخمسيني ذو الشوارب الكثة والرأس الأصلع، والبطن العظيم التي تحتك بمقود العربة من ضخامتها.
أخرجت الفتاة من حقيبة يدها قصاصة صغيرة نظرت بها، ثم أعادتها مرة أخرى إلى الحقيبة.

أود الذهاب إلى قرية دير البلح... قالت الفتاة.

أنا بالعادة لا أذهب إلى هناك فالطريق طويل، لكني أستطيع إيصالك إلى موقف الحافلات ومن هناك تأخذين حافلة إليها.

حسناً، المهم أن أرحل من هذا المكان المخيف.

هبط الرجل من العربة ثم تناول حقيبة الفتاة ووضعها بمؤخرة العربة، ثم عاد إلى مكانه مرة أخرى خلف المقود، بينما جلست الفتاة على الأريكة الخلفية، وانطلقت العربة تشق طريقها على أنغام أغنية "العيون السود" لوردة.

لهجتك تدل على أنكِ مصرية.. قال السائق.

نعم، أنا بالفعل مصرية.. ردت الفتاة.

ما الذي يأتي بفتاة صغيرة مثلكِ هنا وحدها؟

يبدو أنك ثرثار ولن تكف عن الأسئلة.. قالت الفتاة بصوت خفيض.

ماذا يا آنسة؟

لا شيء، أقول إنني قادمة لرؤية والدي، فهو فلسطيني يعيش هنا بقرية دير البلح.

آه.. وما اسمه؟

حاولت الفتاة أن تخترع أي اسم وهمي:

امMم.. مصطفى علوان.

لا أعرف أحدًا هناك بهذا الاسم.

جيد، من الأفضل لك أن تنتبه للطريق.. قالت الفتاة في محاولة لإنهاء فيض الأسئلة التي يجود بها لسان السائق.

بالمناسبة اسمي "عارف"، وأنتِ؟

اسمي رهف.

مقهى إيتوال بوسط البلد (القاهرة)

فوق إحدى الطاولات التي افترشت بمحاذاة الرصيف، كانت تجلس بكامل أناقتها رغم الحزن الجلي بقسمات وجهها وثوبها الأسود الذي يزيد من جمالها. نظرت نحو تمثال "طلعت حرب" ثم تناولت رشفة من كوب قهوتها وأعادته مرة أخرى.

ما زلتِ تفكرين بالأمر؟

سألها شاب كان يجلس قبالتها على ذات الطاولة، يرتدي نظارة طبية، بجسد نحيف وقامة طويلة.

لقد اتخذتُ قرارًا ولا رجعة فيه.. ردت عليه.

ماذا لو كان ما تبحثين عنه وهمًا؟

أبي ليس وهمًا يا معتز.. قالت بانفعال.

لم أقصد هذا، عذرًا يا رهف، كل ما قصدته أنكِ كمن يبحث عن شيء لا يعرف ما هو.

ماذا تعني؟

أنتِ لم تري والدكِ من قبل، لم تتحدثي معه، قد يكون غادر المكان أو حتى...

توفي.. قلها.. حتى لو حدث هذا على الأقل سأعلم مكانه. هناك لي عائلة، أما هنا وبعد رحيل والدتي فمن لي؟

وأين أنا يا رهف؟.. سألها بحزن.

أنت خطيبي وحبيبي يا معتز، لكن أرجوك دعني أحاول مجرد محاولة لا أكثر، على الأقل يكون لي من يسلمني لك يوم زفافنا.

حسناً يا رهف، ولكني أخاف عليكِ.

لا تخف، فأنا بمئة رجل.

حسناً، لكن عديني أن تعودي سريعاً.

ابتسمت رهف ثم أمسكت يده قائلة بحب:

أعدك بهذا.

عادت بنهاية اليوم إلى شقتها كما اعتادت منذ رحيل والدتها "ميرال"؛ تشعر بالغربة كلما تذكرت أنها أصبحت وحيدة بدونها. رغم مرور ستة أشهر على وفاتها إلا أنها ما زالت غير مستوعبة فكرة موتها. عاشت وحيدة كما تعيش هي الآن، لكنها لن ترضى بهذا المصير، لن تقضي ما تبقى من عمرها بلا أهل.

تتذكر كيف كانت تصر والدتها أن تمارس شعائر دينها الإسلامي وتذكرها دوماً:

"والدكِ مسلم يا رهف، إذًا فأنتِ مسلمة".

كانت تقول لها حين كانت طفلة:

لكنكِ لا تصلين كما أصلي، كما أنكِ تذهبين إلى الكنيسة كل أحد!

فكانت تجيبها:

الطفل يتبع ديانة والده يا طفلتي، ووالدكِ مسلم، ثم إنها في الأخير أديان رب واحد، بالنهاية جميعنا نعبده مهما اختلفت طقوس العبادة.

تتذكر كيف كانت تحثها على الذهاب إلى المسجد القريب لحفظ القرآن الكريم، وكيف تشاركها صيام شهر رمضان وتحتفل معها بالأعياد. اشتاقت لها كثيراً، كما اشتاق لها كل ركن بالشقة ما زال يحتفظ برائحتها.

توجهت نحو غرفة والدتها، جلست فوق فراشها تتحسسه. تذكرت حين استيقظت بمنتصف الليل وهي تنام إلى جوارها على ألم يمزق أحشاءها، وفزعت حين رأت بقعة الدماء تلطخ ثوبها؛ ابتسمت والدتها بتلك الليلة وهونت عليها، كانت المرة الأولى التي تقول لها فيها: "لقد كبرتِ يا رهف دون أن أشعر".

تذكرت حين حصلت على شهادة البكالوريوس في الهندسة المدنية، وكم فرحت والدتها يوم حفل تخرجها وأهدتها قلادة على هيئة مصحف صغير. ومقدار الفرحة التي اعتلت وجهها حين أخبرتها أن زميلها معتز يود زيارتهما لطلب الارتباط بها. كانتا تجلسان سوياً، تخطط لها كيف سيكون زفافها، وكم ستكون جدة رائعة لأطفالها؛ أحلامٌ حلماها سوياً دون أن تتحقق بوجودها.

فرت دمعة من مقلتيها سرعان ما ابتلعتها شفتاها فشعرت بملوحة مذاقها. جذبت درج "الكومود" ثم أخرجت ألبوم صور؛ صور كانت تجمعهما معاً تصفحتها، ثم توقفت عند صورة قديمة باهتة. أخرجتها

من غلافها الشفاف ثم نظرت بظهرها حيث كُتب: (حديقة الأسماك ١٩٨٤). كانت والدتها تقف أمام بحيرة صغيرة يسبح بها بعض الأوز، يقف بجوارها رجل طويل القامة عريض الجسد، ملامحه غير ظاهرة، لكن ما يميزه شاربه الضخم المنمق، كان يضع ذراعه فوق كتفها وكلاهما مبتسمان للكاميرا.

أعادت الصورة مكانها ثم أخرجت غيرها: (حفل الزفاف ربيع ١٩٨٥). بتلك الصورة كانت والدتها بأبهى صورها، ترتدي ثوب زفاف أبيض اللون مطرزاً بقطع الكريستال الصغيرة للغاية، كانت تشبه الأميرات وهي جالسة فوق كرسي خشبي، بينما يقف والدها خلفها بحلته السوداء كأحد فرسان الروايات القديمة.

وضعت الصورة جانبها ثم التقطت أخرى: (مستشفى النصر ١٩٨٧). كانت والدتها ترقد فوق سرير معدني بخصلات شعر مبعثرة، تحمل رضيعاً صغيراً يرتدي ثياباً أكبر من حجمه، كان ذلك الرضيع هو "رهف" بعد ولادتها ببضع ساعات فقط. لم يكن والدها بتلك الصورة ولا بأي صور أخرى.

أخبرتها والدتها أنه عاد إلى فلسطين مرة أخرى حين بدأت الاعتداءات الصهيونية على البلدة ليطمئن على أسرته هناك، لكنه لم يعد بعدها وانقطعت أخباره. كم تشتاق إليه وتتساءل: ترى كيف هو شكله الآن؟ هل سيتذكرها حين يراها؟ هل سيشعر نحوها بالأبوة؟ لماذا لم يحاول العودة مرة أخرى؟ هل ما زال حياً؟

أسئلة كثيرة تعج بها رأسها، لذلك قررت قطع الشك باليقين والبدء برحلة البحث عنه، عن جذورها الفلسطينية.

غفت رهف بجوار ألبوم الصور دون أن تشعر، محتضنة وسادة رأس والدتها حيث كانت تضعها خلف ظهرها في أيامها الأخيرة. استيقظت شاعرة بآلام في فقرات جيدها، حركته قليلاً ونظرت إلى ساعة هاتفها؛ كانت العاشرة صباحاً. وجدت ثلاث مكالمات فائتة من معتز ورسالة صوتية على "الواتساب" منه أيضاً، استمعت إليها فكان يخبر المستلم بأن خاله أنهى الإجراءات القانونية الخاصة بسفرها، وعليها أن تتوجه إلى السفارة للحصول على التأشيرة والموافقة. ردت عليه برسالة صوتية مقتضبة قائلة:

شكراً لك حبيبي.

تركت الهاتف ثم نهضت متوجهة إلى دورة المياه، تناولت حمامها الصباحي ثم شطيرة الجبن المفضلة لديها مع كوب قهوتها سريعاً. غادرت الشقة واستقلت سيارتها "الفيات ١٢٨" متوجهة نحو السفارة. أخيراً حصلت على الموافقة والتأشيرة الخاصة بدخول فلسطين، أو كما يقول الصهاينة "إسرائيل"؛ كم تشعر بالألم لأن جوازها يحمل ختم تلك الدولة المزعومة، أبادها الله من فوق الأرض.

سارت بسيارتها بعد ذلك في شوارع "المحروسة" التي تحبها، والتي تحمل عبق ذكريات جميلة تخصها؛ كشارع المعز، وبيت السحيمي، والجامع الأزهر، ومسجد عمرو بن العاص، والقلعة... تذكرت كم من المرات اصطحبتها والدتها "ميرال" إلى تلك الأماكن حين كانت تعمل معلمة للتاريخ، فقد كانت تعشق التاريخ الإسلامي والقبطي، فورثت عنها هذا العشق.

في نهاية جولتها، جلست على أحد المقاهي بشارع القلعة الذي اعتادت الجلوس فيه، طلبت من النادل كوب قهوة بالهيل كما تحب؛ فقد أخبرتها والدتها أن والدها كان يحب القهوة بالهيل أيضاً، ابتسمت حين تذكرت هذا.

لمن تلك الابتسامة؟

قالها معتز الذي وصل إلى المكان دون أن تشعر. أجابت رهف:

لك بالطبع.

سأصدق هذا.. ها هي تذكرة الطائرة.

قال معتز وهو يسلمها التذكرة، فتناولتها رهف بلهفة. أضاف معتز بحزن:

إن موعدها غداً في تمام الواحدة ظهراً.

قالت رهف تداعب لحيته:

لا تحزن، فأنا لا أحب رؤيتك هكذا، لقد أحببتك لأنك خفيف الظل.

فقط لأني خفيف الظل؟

يكفي يا رجل، لا تكن طماعاً.

لست أطمع سوى أن تظلي بجواري، ما زال لدي أمل أن تغيري رأيكِ وتنسي الأمر برمته، اعتبريني أنا والدكِ.

ليس ثانية يا معتز، أرجوك لا تصعب الأمر عليّ.

حسناً، ولكن عديني مرة أخيرة أن تعودي سريعاً.

أعدك للمرة المئة يا "صاحب الظل الطويل".

سأكون عندكِ غداً بتمام الحادية عشرة لأقلكِ إلى المطار.

لا يا معتز، سأذهب وحدي، تعلم أني أكره لحظات الفراق تلك.

هذا هو طلبي الأخير يا رهف.

آه منك يا معذبي! حسناً سأنتظرك، هيا اعزمني على شطائر "الفلافل" الحارة، فأنا لم يدخل جوفي شيء منذ الصباح.

قطعت سيارة معتز الطريق الصحراوي حتى وصلت إلى المطار. هبطت رهف بينما حمل معتز حقيبتها، وداخل المطار انتهت من التصديق على أوراقها وفحصها، ثم وقفت يحول بينها وبين معتز سور معدني عازل.

سأشتاق إليكِ كثيراً.. قال معتز وهو يحتضن يدها الصغيرة.

وأنا أيضاً يا صاحب الظل الطويل.

قالت رهف ثم خلعت قلادتها الصغيرة التي أهدتها لها والدتها وسلمتها له قائلة:

خذ هذه، احتفظ بها معك حتى أعود.

لماذا يا رهف؟

لتتذكرني.

وهل سأنساكِ حتى أتذكركِ؟

أوه يا معتز، افعل ما أقول ولا تجادل!

حسناً يا رهف.

تناول معتز القلادة بقبضة يده مع صوت المضيفة في مكبر الصوت يعلن عن قيام الرحلة المتجهة نحو مطار "عطاروت". تبادلا نظرات الحب والاشتياق، وطبع معتز قبلة فوق جبينها قبل أن تحمل حقيبتها وترحل.

اختلط صوت محركات الطائرة بصوت مكابح عربة الأجرة، فاستيقظت من غفوتها. سألت رهف:

ما الأمر؟

يبدو أن الوقود نفد.. رد سائق العربة.

ماذا؟.. قالت رهف بصوت عالٍ مستنكرة.

كما أخبرتكِ يا آنسة، الوقود نفد.. رد السائق ببرود.

نظرت رهف حولها فلم ترَ سوى صحراء شاسعة مترامية الأطراف، والليل بدأ يسدل ستائره.

ألم تعمل حساباً لذلك؟ ماذا سنفعل الآن في وسط تلك الصحراء الموحشة في هذا الوقت؟

لا تقلقي، ستمر الآن سيارة وسأذهب لجلب الوقود.

ماذا؟ وتتركني هنا وحدي؟ هل جننت؟.. قالت رهف منفعلة.

لا تخافي، لن أتركِكِ.. قال السائق.

أرخت رهف رأسها للخلف في يأس، بينما وقف السائق متكئاً على مقدمة العربة يشعل سيجارة في انتظار مرور أي سيارة.

أتعلمين يا آنسة؟ هذه الصحراء كانت يوماً من الأيام جنة الله على الأرض.. لعنة الله على الحرب وعلى الاحتلال.. قال السائق دون أن ترد عليه رهف التي أخذتها غفوة أخرى، لم تستيقظ منها إلا على صوت طلقات الرصاص في كل مكان.

نهضت مذعورة، بحثت عن السائق فلم تجده. هبطت من السيارة بخوف، ثم سارت بخطى مضطربة وهي تسمع صوت الطلقات مجهولة المصدر، حتى ارتطمت قدمها بجسد سائق العربة المضرّج بدمائه بعد أن اخترقت طلقة مؤخرة رأسه. شعرت بالذعر وتخشب جسدها، فلم تستطع تحريك خطوة أخرى، حتى إنها نسيت كيف تبكي أو تصرخ.

ظلت هكذا لبعض الوقت قبل أن تصيب بعض الرصاصات خزان الوقود شبه الفارغ فاشتعلت النيران به. حاولت أن تتحرك وتتعد بصعوبة، لكنها لم تبتعد مسافة كافية لتكون بمأمن من قوة ضغط انفجار العربة، الذي أطاح بجسدها أرضاً ليرتطم رأسها بصخرة صغيرة، فانفجرت الدماء من مؤخرة رأسها وفقدت الوعي.

ألم عاتٍ يجتاح رأسها، جفونها ثقيلة كأطنان من الرمال؛ كلما جاهدت لفتحها شعرت بألم من الضوء فتغلقها مرة أخرى. حاولت تحسس رأسها الملفوفة بالشاش فشعرت بالوهن.

كيف حالكِ الآن؟.. سألها شاب، فحاولت جاهدة أن تجلس.

لا عليكِ.. استريحي.

أين أنا؟ ما الذي حدث؟.. سألته رهف بوهن.

لقد تعرضتِ لحادث بسيط لكنكِ بخير الآن.. قال الشاب.

حادث.. آه.. أتذكر السائق.. الرصاص...

نعم نعم، السائق رحمه الله. لم نجد بحوزتكِ أي إثبات شخصية، يبدو أن أوراقكِ كانت داخل السيارة التي انفجرت.

أنا.. لا أتذكر من أنا.. لا أتذكر شيئاً سوى طلقات رصاص ونيران، لا شيء آخر.

يبدو أن عقلك مجهد، استريحي الآن وغداً نتحدث. سأرحل الآن وستأتي شقيقتي الصغرى لتناولكِ الدواء.. قال الشاب وهو يغادر الحجرة. جاهدت رهف لفتح عينيها فرأته بصورة مشوشة؛ شاب حنطي البشرة، طويل القامة، عريض الجسد، ذو قسمات وسيمة ولحية وشارب منمقين.

من أنت؟.. سألته وهو يدير مقبض الباب. نظر إليها مبتسماً:

أدعى نضال الغزاوي.. قالها ثم غادر الحجرة.

بعد قليل دلفت إلى الحجرة صبية صغيرة ذات ضفائر ذهبية، ترتدي ثوباً منقوشاً برسوم الزهور الزرقاء الصغيرة مع "إشارب" ينسدل من فوق رأسها للخلف من شدة نعومته، تحمل طاولة يدوية فوقها قدر يتصاعد منه البخار. جلست فوق طرف الفراش ثم وضعت الطاولة جانباً. شعرت بها رهف فاستقامت قليلاً، وناولتها الصبية الدواء.

حان وقت الطعام.. قالت الصبية بحب، ثم مدت ذراعها بملعقة من الحساء الساخن نحو فم رهف.

أين أنا؟.. سألت رهف بعد أن ابتلعت الحساء.

أنتِ في دار الشيخ بدر الغزاوي.. ردت الصبية.

أين توجد هذه الدار؟ ولماذا تتحدثون بهذه اللهجة؟

بقرية "أبو عمار" بالقدس، ونحن فلسطينيون.. ردت الصبية بدهشة.

ما اسمكِ؟

أدعى زهرة، وأنتِ؟

لا أتذكر.

نعم، فالطبيب أخبر نضال أنكِ تعانين من فقدان الذاكرة.

انتفضت رهف في مكانها:

فقدان ذاكرة؟ يعني أني لن أتذكر من أنا وكيف جئت إلى هنا؟

كان صوت رهف عالياً فوصل إلى مسامع والدة نضال التي دلفت إلى الحجرة بجسدها الممتلئ.

ما الأمر يا زهرة؟.. سألتها والدة نضال.

لا أعلم يا أماه، فقط أخبرتها أنها فقدت الذاكرة.. ردت زهرة.

احملي الحساء واخرجي من الحجرة، هيا.. قالت والدتها بغضب، ثم جلست بجوار رهف التي كانت تبكي، وضمتها إلى صدرها قائلة:

هوني عليكِ يا بنيتي، الطبيب قال إنه عرض مؤقت وستعود لكِ الذاكرة، وحتى ذلك الوقت أنتِ في بيتكِ، وهذه الدار داركِ، وأنا والدتكِ كما نضال وزهرة.

هدأت رهف قليلاً إلا من شهقات متقطعة، حتى غفت في حضن والدة نضال وهي تملس على رأسها وتتمتم بآيات من الذكر الحكيم.

مر على وجود رهف بدار الشيخ بدر الغزاوي ما يقرب من الشهر، تحسنت خلاله صحتها وتعرفت على أهل الدار بشكل أقرب، خاصة بعد مشاعر الاحتواء التي شملوها بها. داوم نضال على مراجعة الطبيب بشأن حالتها الصحية، وكان كل ما يعكر صفو حياتها هو تلك الذاكرة التي انمحت من رأسها؛ فمن المؤلم ألا تعرف من أنت وما هو ماضيك، لكن ما كان يهون عليها هو تلك المحبة واهتمام نضال بها، والكتب التي كان يهديها لها على الدوام.

عرفت أن نضال طالب في السنة النهائية بالجامعة حيث يدرس القانون، وشقيقته "زهرة" في الصف المتوسط، أما والدته فسيدة منزل لم تكمل تعليمها، ووالده ـ رحمه الله ـ كان رجلاً مناضلاً؛ لذلك سماه "نضال".

ذات يوم، كانت رهف تجلس بباحة الدار تقرأ رواية (أعراس آمنة)، حين نادت عليها والدة نضال لتناول الغداء:

يا...

لم تكمل نداءها فهي تجهل بماذا تناديها. اقترب نضال يضع أحد الأطباق على الطاولة، فشعر بحزن رهف وتأثرها بالأمر، فجذب شقيقته زهرة من كتفها قائلاً:

ما رأيك يا زهرتي أن نختار اسماً لها؟

معك حق.. اممم.. ولكن أي الأسماء نختار؟

قالت زهرة وهي تتصنع التفكير. مرت لحظات صمت حتى قال نضال:

وجدتها! ألم تتمني دوماً يا زهرة أن تكون لكِ أخت، بل وتتخيلينها موجودة؟

نعم.

بماذا كنتِ تنادينها؟

كنت أناديها "مريم".

إذاً هي مريم.

أصبحت رهف بين ليلة وضحاها "مريم" التي يحبها الجميع، وصارت جزءاً لا يتجزأ من الدار، واحدة من أهله، تتشارك مع زهرة حجرتها. عرفتها السيدة أم نضال على جيرانها فأحبوها.

استيقظت مريم (رهف سابقاً) ذات صباح ربيعي دافئ، سعيدة مبتسمة تشعر بخفة وكأنها تستطيع أن تحلق. أسرعت نحو النافذة فتحتها على مصراعيها، فتسلل ضوء الشمس الخجول وعانق وجهها، أغمضت عينيها بفرح ثم فردت ذراعيها كجناحين.

انهضي أيتها الكسولة، لديكِ مدرسة.. قالت مريم وهي تدفع جسد زهرة النائمة، ثم غادرت الحجرة متوجهة نحو المطبخ حيث وجدت السيدة أم نضال تعد الإفطار.

صباح الخير يا أماه.. قالت مريم.

صباح الصفاء يا بنيتي، هل استيقظت الكسولة؟

نعم.. اممم.. هل استيقظ نضال؟

نعم، هو بأعلى الدار يسقي شجرة الياسمين، اذهبي إليه حتى أعد الإفطار.

شعرت مريم بسعادة لكنها قالت:

سأساعدكِ أولاً.

لا، أنا تقريباً انتهيت، اذهبي وسأنادي عليكما ما إن أنتهي.. هيا.

قبلت مريم وجنة والدة نضال ثم صعدت نحو السطح.

كان نضال يسقي شجيرة الياسمين المزهرة ذات الرائحة العطرة. وقفت مريم تتأمله؛ كم هو جميل!

مريم.. قال نضال ليخرجها من شرودها.

صباح الخير.. قالت مريم.

صباح النور.. رد عليها.

يبدو أنك تعشق هذه الشجيرة لتوليها كل هذا الاهتمام.

نعم كثيراً يا مريم، فوالدي هو من اشتراها حين كانت مجرد شتلة صغيرة؛ لذلك أنا أحبها.

لِمَ لا تحدثني عن والدك؟

والدي لم يكن مجرد أب أو رجل عاد...

يا أولاد، الفطور جاهز هيا.. قالت والدة نضال لتقطع جملته قبل أن يتمها.

جائعة؟.. سألها.

جداً.. أجابت.

وأنا أيضاً، نتناول الفطور وسأكمل لكِ في طريقنا إلى السوق.

قال لها نضال ثم أهداها زهرة ياسمين علقتها بخصلات شعرها.

في طريقهما إلى سوق القرية، حيث سيبتاع لها نضال بعض الثياب المناسبة لها، إذ كانت ترتدي ثياب والدته الواسعة غير المناسبة لقوامها الصغير، كان الطريق تحفه مزارع الزيتون البهية.

أتمنى أن أقضي بقية عمري هنا وسط هذه الطبيعة الساحرة.. قالت مريم وهي تسير بجوار نضال كفراشة.

كما تريدين، أنتِ فقط تمنَّي.. قال لها نضال.

مارد المصباح أنت؟.. قالت ضاحكة.

نعم، هل لديكِ مانع؟

لا.. حسناً أيها المارد، اقطف لي بعض حبات الزيتون.

وصلا إلى سوق القرية حيث الباعة والناس والحركة التي لا تهدأ. كانت مريم تحمل حبات الزيتون التي قطفها لها نضال كما أرادت. مرا بمتجر الثياب، ابتاعت ثلاثة أثواب وبعض الملابس، ثم عرجا على بائع "العرقسوس"، صب لهما كوبين.

يا إلهي! ما هذا المذاق السيئ؟.. قالت مريم وهي تعيد الكوب للبائع.

ضحك نضال الذي تجرع الكوبين باستستمتاع ثم سارا عائدين.

ها.. أكمل حديثك عن والدك.. قالت له مريم في طريق العودة.

كان أبي مناضلاً، دافع عن وطنه كثيراً حتى اعتُقل في إحدى المرات عام ٩٨. أخذوه من وسطنا، كنا نعلم أنه في كل مرة يعود، لكن تلك المرة لم يكن أبي الذي يعود أقوى من ذي قبل، كان حزيناً منهاراً، لزم الفراش حتى رحل صامتاً مقهوراً.

رحمه الله.. قالت مريم متأثرة، فلاحظت حزن نضال وحاولت أن تغير الموضوع:

ما رأيك بذوقي في الثياب؟.. سألته بمرح.

اممم.. ذوقي أفضل منه.. رد عليها متخابثاً.

ماذا! ألم يعجبك ما ابتعتُ؟

رد عليها بإيماءة تدل على النفي، فقالت له:

أيها السمج!

ثم شرعت بضربه بحقائب الملابس البلاستيكية طوال الطريق وهو يضحك.

عادا إلى الدار، فأسرعت مريم نحو الحجرة تتبعها زهرة التي عادت مؤخراً من المدرسة.

ها.. أريني ماذا اشتريتِ؟.. قالت زهرة بلهفة وهي تعبث بالحقائب.

جلست تقلب المحتويات وهي تثني على ذوق مريم، ثم طلبت منها أن ترتدي أحدها؛ كان باللون الأبيض ومنقوشاً بالأزرق.

ارتدي معه الحذاء الأبيض الذي اشترته لكِ والدتي.. قالت زهرة.

انحنت مريم تبحث عن الحذاء أسفل الفراش، فارتطمت يدها بشيء جلدي، جذبته تجاهها فوجدتها حقيبة يد رثة المظهر، قلبتها أمام عينيها:

لمن هذه الحقيبة؟.. سألت مريم.

امممم.. لا أعلم، يبدو أنها تخص والدتي، هاتيها لأسأل والدتي عنها لحين انتهائكِ من ارتداء الثياب.. ردت زهرة فارتباك وهي تنتشل الحقيبة من يد مريم، وتغادر الحجرة متوجهة نحو خارج الدار لتضعها بصندوق القمامة ثم تعود.

ليلة الحادث

في تلك الليلة، كانت زهرة مستيقظة داخل حجرتها تراجع بعض دروسها حين سمعت صوت باب الدار يفتح وجلبة بالخارج. خرجت تستطلع الأمر، فوجدت شقيقها نضال وبعض أصدقائه يحملون مريم التي كان يبدو عليها فقدان الوعي، ورأسها ملفوف بالشاش، ثم وضعوها فوق فراشها وخرجوا جميعاً أمام الدار. نظرت زهرة في المكان فوجدت أحدهم قد وضع حقيبة يد جلدية فوق الطاولة، اقتربت منها وتفحصتها، فوجدت جواز سفر وأوراقاً شخصية.

زهرة، أعدي لنا الشاي.. قال لها نضال من الخارج.

حملت الأوراق ثم توجهت نحو المطبخ، أشعلت الموقد ووقفت تفكر حتى انتشلها صوت "فهد" صديق نضال:

زهرة، أين الشاي يا فتاة؟

انتفضت فوضعت الأوراق لا إرادياً فوق النار، ثم ذهبت تملأ "البراد" بالماء وعادت تضعه فوق رماد الأوراق المحترقة، ووعدت نفسها تلك الليلة ألا تخبر أحداً بما حدث، وتجعله في طي النسيان.

مرت الأيام سريعة بدار الشيخ بدر الغزاوي، ووُضعت بذرة الحب بقلب كل من مريم ونضال حتى علم الجميع بالأمر؛ فالعيون تفضح والقلوب تتحدث. أصبح نضال هو محور اهتمام مريم وشغلها الشاغل، حتى إن مَن بالدار علموا أن كل شؤون نضال من اختصاص مريم وحدها، بدءًا من اختيار ثيابه حتى معاونته في الدروس.

ذات يوم، قررت أن تعد له أكلته المفضلة وهي "المقلوبة"، التي تعلمتها من والدة نضال بمناسبة عيد ميلاد زهرة، الذي قررت مريم الاحتفال به على غير عادتهم. أعدت الطعام والحلوى بمعاونة والدة نضال، ثم اجتمعوا جميعًا حول الطاولة يرددون أغنية عيد الميلاد لزهرة التي أطفأت شمعات عمرها الأربعة عشر، ثم جلسوا يتناولون الحلوى.

مريم هي من أعدت كل الطعام اليوم.. قالت زهرة موجهة كلامها لنضال.

لستُ وحدي، فقد عاونتني والدتي أم نضال.. قالت مريم بخجل طفولي وهي تبتسم باستحياء.

أنا لم أفعل شيئًا يا بني، هي من فعلت كل شيء.. قالت والدة نضال.

أعلم ذلك يا أمي، فالطعام ليس جيدًا كما تعدينه.. قال نضال يود أن يغيظ مريم.

لستَ مجبرًا على تناوله يا خفيف الظل.. قالت مريم ببرود.

من باب جبر الخاطر ليس أكثر.

لا تكن سخيفًا هكذا...

جلس الجميع يتسامرون حتى سمعوا طرقًا على الباب، فأسرعت زهرة تفتح الباب.

إنها طرقات يوسف.. قالت زهرة وهي تبتسم في وجه ذلك الشاب الواقف أمام الدار.

كانت المرة الأولى التي ترى فيها مريم يوسف، ورغم أنه صديق نضال المقرب إلا أنه يعيش خارج القرية. كان شابًا قصير القامة، ممتلئ الجسد، حنطي البشرة، ذا شعر مجعد، يرتدي معطفًا جلديًا أسود اللون. حدثها نضال عنه من قبل وكم يثق به ثقة عمياء. جلس يوسف جوار نضال بعد أن سلم على الجميع، ثم أخذه ودلفا إلى حجرة نضال بعد أن طلب من والدته إعداد الشاي لهما. أول انطباع شعرت به مريم تجاه يوسف هو أنه شخص غامض شحيح الكلام.

وقفت جوار والدة نضال بالمطبخ بينما تعد الشاي.

يبدو عليه أنه ثقيل الظل.. قالت مريم.

من يا بنيتي؟.. سألت والدة نضال.

يوسف هذا.. ردت مريم، فضحكت والدة نضال من ردها:

هو يبدو هكذا لأول وهلة، لكنه طيب القلب، كما أن ما مر به لم يكن بالهين.

ما الذي حدث له؟

فقد والديه حين كان في الرابعة إثر انفجار قنبلة سقطت على المنزل، عاش مع جده لأمه - آخر ما تبقى له من أسرته - حتى توفي وهو في عمر السادسة عشرة، فعاش حياة اليتم وذاق الجوع، كما أنه تعرض لتجربة الاعتقال منذ عامين.

يا إلهي! لقد مر بالكثير من الصعاب.. قالت مريم وهي تتناول أكواب الشاي الساخن من والدة نضال لتقديمها لهما.

دلفت مريم إلى الحجرة فدس يوسف بضعة أوراق داخل معطفه سريعًا، أسرع نضال يتناول منها أكواب الشاي بينما نظر لها يوسف نظرة غير مريحة؛ شعرت بقشعريرة تجتاح جسدها.

مريم.. مريم شكرًا لكِ... قال نضال بينما هي شاردة تنظر ليوسف.

آه.. حسنًا، هل ترغب بشيء آخر؟.. سألته مريم.

لا شكرًا، فقط أغلقي الباب خلفكِ.

خرجت مريم وبعقلها سؤال واحد: ما الذي وراء ذلك المدعو يوسف؟

في الأيام التالية لظهور يوسف كثر غياب نضال عن الدار، حتى إن بعض الليالي كان يبيتها بالخارج. أصبح قليل الكلام بالكاد تراه مريم، الأمر الذي أرق مضجعها وجعلها تشعر بالغضب تجاه يوسف، حتى إنها كانت تفتعل الشجارات مع نضال.

حتى عصر ذلك اليوم الصيفي، كانت مريم تجلس فوق عتبة الدار برفقة والدة نضال حيث تمشط شعر مريم المبلل بينما تحكي لها والدة نضال عن ذكريات طفولتها.

كنا نحمل الجرار من البلدة المجاورة حفاة الأقدام، وذات يوم ح... لم تكمل والدة نضال كلامها حين سمعت صوت جلبة قادمة من نهاية الشارع وأقدامًا تهرول تجاه الحارة المجاورة. أسرعت والدة نضال تستطلع الأمر ومن خلفها مريم، سألت إحداهن بعد أن رأت عربات الشرطة تسد الطريق والجنود الصهاينة منتشرين بالمكان:

ما الأمر يا أم سليم؟.. سألتها والدة نضال.

الشرطة جاءت لتعتقل أبا يعقوب.. ردت عليها.

يا إلهي! مرة أخرى؟ ألا يتركون هذا العجوز المسكين في حاله؟

ما الأمر يا أمي؟.. سألتها مريم.

إنه جارنا أبا يعقوب، جاءت الشرطة لتعتقله.. ردت عليها.

لماذا؟ ماذا فعل؟

الأمر يطول شرحه يا بنيتي، لكنه الظلم والقهر.

كان صوت أبي يعقوب الواهن وهو يُدفع من قبل الجنود نحو عربة الشرطة، وطفلة صغيرة تهرول خلفه باكية تمسك بطرف عباءته، قد وصل إلى مسامع مريم فحاولت اختراق الحشود حتى وصلت إلى الطفلة التي دفعها أحد الجنود فسقطت أرضًا. ركضت نحوها تحتضنها وهي تنظر للجندي بغل، لحظات ورحلت عربات الشرطة وانفض الجمع ولم يبقَ سوى مريم والطفلة ووالدة نضال وبعض النسوة.

لا عليكِ يا صغيرتي... قالت رهف للطفلة وهي تحملها باكية عائدة إلى الدار برفقة والدة نضال.

جلست مريم تهدهد الصغيرة وهي تحتضنها كفرخ صغير يرتعش حتى غفت، فحملتها نحو حجرتها ووضعتها فوق الفراش، ثم طبعت قبلة فوق وجنتها وغادرت الحجرة. اصطدمت وهي خارجة بنضال الذي جاء ما إن علم بالأمر برفقة يوسف؛ كان غاضبًا، حاولت مريم التحدث معه لكنه كان ثائرًا، دلف إلى حجرته بينما انتظره يوسف بالخارج، ثم سرعان ما خرج حاملاً حقيبة جلدية صغيرة ورحلا سويًا.

كانت الصغيرة النائمة "ريحانة" هي حفيدة الشيخ رضوان، أو كما يطلقون عليه "أبا يعقوب". ويعقوب هو ابنه الوحيد الذي لم يرزق بغيره بعد سنوات من الطواف على الأطباء والمشايخ. توفيت زوجته بعد ولادة يعقوب بعام، فأصبح هو الأب والأم والمدار الذي يدور يعقوب في فلكه؛ رفض الزواج رغم كل الفرص التي عُرضت عليه، فكان يعقوب بالنسبة له هو الحياة والهواء الذي يتنفسه.

كبر يعقوب وأصبح مراسلاً صحفيًا بإحدى الوكالات الصغيرة، ومن خلال عمله تعرف على صحفية إنجليزية شابة تدعى "جوليا"، نما الحب بينهما حتى تكلل بالزواج وكانت ثمرته "ريحانة". تعرض للاعتقال أكثر من مرة، وبعد شهر من المرة الأخيرة التي اعتقل فيها، كانت زوجته جوليا قد وقعت تحت قبضتها أوراق هامة تكشف فساد إحدى المؤسسات الصحفية في البلاد، فتعرضت للاختطاف وتم التواصل مع يعقوب لمساومته: الأوراق مقابل حياة زوجته الحبيبة.

أودع يعقوب نسخة من تلك الأوراق عند والده الشيخ رضوان، كما أودع طفلته ريحانة قائلاً:

احتفظ بهذه الأوراق يا والدي جيدًا، إن لم أعد فسلمها لنضال الغزاوي، واعتنِ بريحانة فلن يكون لها غيرك.

قبل أن يرحل، قبّل رأس يد والده، ثم احتضن طفلته طويلاً وقبّلها في كل شبر من جسدها، حمل حقيبته الجلدية وبداخلها نسخة أخرى من الأوراق، ثم توجه نحو المكان المتفق عليه.

استقل سيارته عبر الطريق الصحراوي حتى توقف عند "الكيلو ٣٢"، هبط منها حاملاً الحقيبة وتوغل في الصحراء حتى لاح له بناء معدني كان مستودعًا قديمًا للخردة. استقبله ملثم يحمل سلاحًا حاول أن يأخذ الحقيبة منه، لكن يعقوب رفض قائلاً:

أرى زوجتي أولاً.

رافقه حتى دلفا إلى داخل المستودع الرطب؛ كانت زوجته جوليا تجلس فوق أحد المقاعد مكممة الفم، معصوبة العينين، ومقيدة الأطراف.

جوليا!.. قال يعقوب وهو يركض نحوها، لكن أحدهم اعترضه بسلاحه.

يعقوب!.. ردت زوجته بلهفة وهي تحرك رأسها كأنها تبحث عنه.

هنا ظهر رجل طويل القامة، عريض المنكبين، ذو لحية وشارب منمق يتخللهما الشيب، وله "كرش" صغير؛ كان يرتشف كوب قهوته بالهيل المفضلة لديه.

من الجيد رؤيتك يا يعقوب، لقد نفذت وعدك، يبدو أنك تحبها حقًا.. قال الرجل.

ها هي الأوراق التي تريد، حرر زوجتي أسلمها لك.. رد عليه يعقوب.

لستَ في موقف يسمح لك بفرض الشروط يا يعقوب، فأنا أستطيع التخلص منك الآن ومن زوجتك بكل سهولة وأحصل على ما أريد، لكني صاحب مبدأ.

آه نعم.. صاحب مبدأ! مَن يتعاون مع الاحتلال ويخرج للناس يتشدق بكلمات الحماس والنضال وحب الوطن، وهو في الأصل يخون هذا الوطن وينخر فيه، لا يوصف سوى بكلمة واحدة.. قال يعقوب باحتقار.

إنها المصالح يا يعقوب، هل تعتقد أن كل هؤلاء المناضلين هم كذلك حقًا؟ أنت فقط تنظر تحت قدميك، أما القاع فيعج بأصحاب المبادئ والشعارات.

جميعكم في الدرك الأسفل سواء، حرر زوجتي أو نفذ ما تريد.

أخبرتك أني صاحب مبدأ.. قال الرجل، ثم أشار لأحدهم أن يفك وثاق جوليا، ولآخر أن يتسلم الحقيبة من يعقوب، ثم أخرج الأوراق ونظر فيها بتمعن:

أحسنت يا يعقوب، ونصيحة مني لك: احمل زوجتك وطفلتك وارحل من هنا إن كنت ترغب في تربية طفلتك بمكان آمن.

نظر يعقوب للرجل باشمئزاز وهو يحتضن زوجته قبل أن يرحلا. غادرا المكان واستقلا السيارة، وما إن أدار محركها حتى انفجرت في مكانها، وتصاعدت ألسنة النيران تتراقص أمام وجه الرجل الذي وقف يشاهد المشهد بوجه جامد.

احتضنت دار الشيخ بدر الغزاوي الطفلة ريحانة حتى يعود الشيخ رضوان من المعتقل، حيث كلفت مشيخة القرية أحد المحامين للدفاع عنه. أحبتها مريم وأغدقتها بالرعاية كما لو كانت طفلتها، وهو الحب الذي استشعرته الطفلة فكان لا يغمض لها جفن إلا في حضنها.

حتى كانت ذات ليلة، استيقظت ريحانة تشعر بالعطش، فذهبت مريم لجلب الماء لها من الإناء الفخاري القابع خلف باب الدار، فسمعت صوت نضال الخافت يتحدث مع أحدهم قائلاً:

الأوراق بحوزتي، سأذهب بها إلى جريدة "الصوت الحر" لأسلمها لرئيس التحرير بنفسي... لا تقلق، فالمحامي طمأننا بأن الأمر مجرد إجراء روتيني وسيطلقون سراحه عما قريب.

أمسكت مريم بالكوب المعدني ودسته داخل الإناء، فصدر صوت احتكاك المعدن بالفخار، وهو الصوت الذي انتبه له نضال الجالس فوق إحدى درجات سلم الدار في الظلام.

مريم.. قال نضال وهو يقف أمامها.

نعم.. ردت باقتضاب دون النظر إليه، ثم خطت متوجهة نحو الحجرة.

مريم.. قال مرة أخرى. توقفت ثم استدارت تجاهه:

نعم، هل تريد شيئًا؟

أعلم أنكِ غاضبة مني.

ولماذا أغضب منك؟ أنا مجرد ضيفة هنا لا أكثر.. قالت بلامبالاة.

شعر نضال بالغضب فاقترب منها ممسكًا بمعصمها:

أنتِ لستِ ضيفة، هل تفهمين؟.. قال بانفعال.

إذًا مَن أكون؟

أنـ...ـتِ.. قال مترددًا.

اترك يدي، حين تعلم مَن أكون سأكون هنا.

أرخى نضال قبضته عن معصمها، فسارت نحو الحجرة وأمسكت مقبض الباب، وقبل أن تديره ناداها للمرة الثالثة:

مريم.

نظرت إليه وهي ما زالت تقبض على الباب، فهرول تجاهها واحتضنها قائلاً:

أحبكِ.

استكانت مريم داخل حضنه، فسألته:

وهل بين الأحبة أسرار؟

لماذا تقولين هذا؟

هناك الكثير من الأمور التي تخفيها عني ولا تبوح بها.

أعلم، لكن هناك أمورًا يصعب البوح بها يا مريمتي.

حتى عني؟

ماذا تريدين أن تعرفي؟

الكثير يا نضال.

وعدها نضال أن يخبرها بكل شيء؛ سقت مريم ريحانة ثم توجهت نحو حجرة نضال برفقته ليكشف لها عما خفي عنها، حيث جلست أمامه على طاولة المذاكرة الخاصة به.

أنا ويوسف أعضاء بجماعة وطنية تقاوم الاحتلال، وتلك الليالي التي أبيتُ فيها بالخارج نكون بمقر الجماعة نتشاور في الأمور التي تهم الوطن، كشأن الشيخ رضوان وغيره، كما نعول بعض الأسر التي استشهد معيلوها.. قال نضال.

أنا آسفة.. ردت مريم بخجل.

على ماذا؟

لأني ظننتُ بكِ ظن السوء.

كيف؟

اعتقدتُ أنك تواعد إحداهن سرًا.. قالت مريم، فقهقه نضال:

أتغارين عليّ يا مريم؟

نعم، وما العيب في أن يغار المحبوب على حبيبه؟

لا عيب في ذلك، لكنكِ وحدكِ في القلب يا مريمتي.

شعرت مريم بحمرة الخجل في وجهها فحاولت تغيير دفة الحديث قائلة:

ما هي الأوراق التي كنت تتحدث عنها بالهاتف؟

آه.. إنها أوراق هامة للغاية تدين بعض رجال الدولة ممن يتشدقون بالشعارات الفارغة وهم ينهشون في الوطن خفية.

إلى مَن سوف تسلمها؟

إلى رئيس تحرير جريدة "الصوت الحر"، السيد مراد الحموي.

امم.. هل تثق به؟

نعم، إنه رجل مناضل حر.

حسنًا، سأرافقك إلى هناك.. قالت مريم.

لا.. الأمر ليس بهذه السهولة، كما أنه خاص بالجماعة.. رد نضال.

حسنًا، سأنضم إلى الجماعة.

لكن الجماعة ليس بها نساء!

فلتكن أنا أولاهن إذًا.. قالت بدلال طفولي.

لن أصل معكِ لحل أيتها الشقية!

ها.. ماذا قلت؟ سأذهب معك.

حسنًا يا مريمتي، كما تشائين.. قال نضال، فقفزت مريم صائحة كطفلة انتصرت في لعبة.

ستوقظين الدار يا مجنونة!.. قال نضال ضاحكًا، فتوقفت تنظر يمنة ويسرة، ثم ضمت شفاهها ووضعت إصبعها فوقها متراجعة للخلف، وخرجت من الحجرة كلص يهرب على وقع ضحكات نضال الخافتة.

بكيتُ.. حتى انتهتِ الدّموع

صليتُ.. حتى ذابتِ الشّموع

ركعتُ.. حتى ملّني الرّكوع

سألتُ عن محمدٍ فيكِ، وعن يسوع

يا قُدسُ، يا مدينةً تفوحُ أنبياء

يا أقصرَ الدروبِ بين الأرضِ والسّماء

يا قدسُ، يا منارةَ الشّرائع

يا طفلةً جميلةً محروقةَ الأصابع

حزينةٌ عيناكِ، يا مدينةَ البتول

يا واحةً ظليلةً مرَّ بها الرسول

حزينةٌ حجارةُ الشوارع

حزينةٌ مآذنُ الجوامع

يا قُدس، يا جميلةً تلتفُّ بالسواد

من يقرعُ الأجراسَ في كنيسةِ القيامة؟

صبيحةَ الآحاد..

من يحملُ الألعابَ للأولاد؟

في ليلةِ الميلاد..

يا قدسُ، يا مدينةَ الأحزان

يا دمعةً كبيرةً تجولُ في الأجفان

من يوقفُ الحجارةَ يا بلدي؟

من يوقفُ العدوانَ يا بلدي؟

عليكِ، يا لؤلؤةَ الأديان

من يغسلُ الدماءَ عن حجارةِ الجدران؟

من ينقذُ الإنجيل؟ من ينقذُ القرآن؟

من ينقذُ المسيحَ ممن قتلوا المسيح؟ من ينقذُ الإنسان؟

يا قدسُ.. يا مدينتي

يا قدسُ.. يا حبيبتي

غداً.. غداً.. سيزهرُ الليمون

وتفرحُ السنابلُ الخضراءُ والزيتون

وتضحكُ العيون..

وترجعُ الحمائمُ المهاجرة.. إلى السقوفِ الطاهرة

ويرجعُ الأطفالُ يلعبون

ويلتقي الآباءُ والبنون

على رباكِ الزاهرة.. يا بلدي.. يا بلدَ السلامِ والزيتون.

كعادة دار الشيخ بدر الغزاوي، في أول كل جمعة من الشهر يؤدون صلاة الجمعة بالمسجد الأقصى. في صباح تلك الجمعة استيقظ أهل الدار باكرًا، أعدت والدة نضال "الشطائر" ليتناولوها في الطريق، بينما كانت مريم تمشط شعر زهرة ثم ريحانة، أما نضال فذهب لاستقدام عربة الأجرة التي ستقلهم إلى هناك.

دوى صوت بوق العربة أمام الدار بينما يحثهم نضال على الإسراع حتى لا يتأخروا.

هيا يا أماه حتى لا نتأخر.. قال نضال.

لا تقلق يا بني، لقد وضعتُ الطعام في الحقيبة.. أجابت والدته.

أين مريم والفتيات؟

في الحجرة.

توجه نحو الحجرة وطرق بابها قائلاً:

هيا أيها الكسالى، لا وقت للانتظار.

أطلت مريم من خلف الباب، فدق قلبه لمرآها؛ كانت كحورية جميلة بثوبها الأبيض. ردت عليه:

نحن جاهزون.

نظر إليها بحب، وحاول أن يغازلها، لكن صوت سائق العربة الجهوري نشله من حلمه الجميل. أسرعت زهرة وريحانة من بين ساقيهما نحو العربة، ثم تبعاهما. جلس نضال على المقعد المجاور للسائق، بينما جلسن هنَّ فوق الأريكة الخلفية.

انطلقت العربة تشق طريقها نحو المسجد الأقصى، ومر بعض الوقت تبادل فيه نضال بعض الأحاديث مع السائق، بينما انخرطت مريم في حديث نسوي مع والدة نضال، حتى لاح في الأفق حاجز أمني.
توقفت العربة أمام الحاجز حيث أطل شرطي إسرائيلي عبر النافذة قائلاً بعربية صحيحة وهو يتفحص الجميع:

الرخصة الخاصة بالعربة..

ناوله السائق الرخصة؛ فقد اعتاد هذا الأمر، فالحواجز الأمنية منتشرة في كل مكان للتضييق على أهل هذه الأرض. أمسك الشرطي الرخصة وتفحصها، ثم نظر للسائق قائلاً:

إلى أين؟

متجهون إلى الأقصى.. رد السائق.

حسناً، اركن على الجانب.

لماذا؟ كل الأوراق صحيحة فما الغرض من ذلك؟.. قال نضال بغضب. نظر له الشرطي ببرود وسأله:

ومن أنت؟

هبط نضال من العربة بينما شعرت مريم بالخوف عليه، فحاولت الهبوط هي الأخرى لكنه أشار لها بالبقاء.

نضال الغزاوي، طالب في السنة النهائية بكلية الشريعة والقانون جامعة القدس.. رد نضال وهو يخرج له "كارنيه" الجامعة. ألقى الشرطي نظرة خاطفة عليه ثم سأل وهو يشير نحوهن:

ومن هنَّ؟

هذه أسرتي؛ والدتي وشقيقتي، وهذه زوجتي وابنتي.. قال وهو يشير إليهن.

حسناً، تحركوا.. قال الشرطي ثم أشار لمعاونيه أن يفسحوا مجالاً لهم للمرور.

صعد نضال العربة مرة أخرى وانطلق السائق، بينما كتمت مريم فرحتها بما قاله نضال، وهي الفرحة التي أحست بها والدته والجميع. وصلت العربة أخيراً أمام ساحة المسجد بعد أن مرت بالعديد من الحواجز الأمنية، هبط الجميع من العربة ثم تحرك السائق ليركنها في مكان آمن.

كانت المرة الأولى التي ترى فيها مريم المسجد الأقصى؛ وضعت الشال الحريري الذي أهدته لها والدة نضال فوق رأسها.

هيا يا مريم، اذهبي برفقة والدتي نحو مصلى النساء، وأنا سأصلي مع الرجال في الساحة، وبعد الصلاة نجتمع هنا مرة أخرى لأريكِ المكان.. قال نضال، فأومأت برأسها ثم عانقت يد ريحانة الصغيرة وذهبت نحو مصلى النساء.

كانت الخطبة تتحدث عن المقاومة وأهمية الوطن وقيمته؛ خطبة أشعلت الحماسة في قلوب الجميع. انتهت الصلاة والتقت مريم بنضال الذي رافقته وهو يحتضن يدها بقبضته، بينما جلست والدته تطعم الفتيات وهي تدعو لهما. بالجوار كانت تسير مظاهرة تندد بهمجية الاحتلال ووجهه القبيح.

بُني المسجد فوق هضبة تدعى "موريا"، ويقال إن من بناه هو أبو البشر آدم، وللمسجد أربعة عشر باباً، بعضها أُغلق بعد أن حرر صلاح الدين القدس.. قال نضال وهو يطوف بها بين جدران المسجد العتيق، وهي تستمع له بإنصات وعيونها معلقة بالمكان. سار بها حتى وصلا إلى مكان ما، توقف عنده قائلاً:

هذا هو حائط البراق الذي عرج منه نبينا وحبيبنا محمد صلوات الله وسلامه عليه، ويطلق عليه اليهود "حائط المبكى"؛ حيث يأتون هنا للبكاء على خراب هيكل سليمان المزعوم.

تنهد نضال وهو يتحسس آثار الحريق التي ما زالت واضحة، فسألته مريم:

ما الذي حدث هنا؟

آه يا مريم، ما حدث كان بشعاً؛ كان ذلك عام ١٩٦٩م حين قام صهيوني متطرف يدعى "مايكل دينيس" بإشعال النيران في الجناح الشرقي للمصلى. كان أبي موجوداً حينها، ووجد الجميع يهرولون ناحية المصلى يصرخون: "احترق الأقصى.. احترق الأقصى". ركض أبي برفقة المصلين يحملون دلاء الماء من "الكأس" (متوضأ الرجال) ويسكبونها لحين قدوم المطافئ التي عرقلت قوات الاحتلال طريقها. تأكل المصلى وجزء من منبر صلاح الدين، كان يوماً عصيباً مرَّ على أهل القدس.

عادت مريم ونضال إلى حيث تركوا والدته، تناولا بضع شطائر ثم حملوا أمتعتهم وتوجهوا نحو العربة للعودة. مرت العربة في طريق عودتها بمنطقة مقابر متهالكة كأنها أطلال مدينة قديمة، تمتم الجميع بسورة الفاتحة ففعلت مريم مثلهم دون معرفة السبب، ثم سألت:

لمن هذه القبور يا نضال؟

إنها مقابر قرية "دير ياسين".. رد عليها.

ولكنها تبدو مهجورة!

لم يعد أحد يسكنها يا بنيتي.. قالت والدة نضال بتأثر.

في التاسع من أبريل عام ١٩٤٨م، قامت منظمتا "الأرجون" و"شتيرن" الصهيونيتان بشن هجوم على قرية دير ياسين التي تقع غرب القدس في تمام الثالثة فجراً. توقع المحتل أن يفزع الأهالي من الهجوم ويبادروا بالفرار من القرية؛ كي يتسنى لهم الاستيلاء عليها ووضع يدهم القذرة فوقها. إلا أن ما حدث كان عكس توقعاتهم، فحين هاجمت القوات الإسرائيلية بعرباتها المصفحة القرية، تفاجأت بطلقات النيران تتراشق عليهم من كل اتجاه، فسقط ٤ قتلى و٣٢ جريحاً؛ كان هجوماً مباغتاً غير متوقع شل حركتهم، فحملوا قتلاهم وتراجعوا.

هدأ الوضع قليلاً قبل أن تنطلق الأعيرة النارية تحصد أهالي القرية، لا تفرق بين رجل وامرأة، أو طفل وشيخ. لم يكتفِ العدو الصهيوني بذلك، بل قاموا بتقييد بعض رجال القرية في مؤخرة عرباتهم وسحلهم عبر الشوارع التي يسكنها اليهود. لن ينسى التاريخ والإنسانية تلك الحادثة حين قامت بعض "الخنازير الصهيونية" بسحل فتاة حرة أمام أعين أهلها، وجردوها من ثيابها وتناوبوا على اغتصابها، ثم قتلوا والدها برصاصة استقرت في رأسه حين لم

يستطع تحمل المشهد فركض تجاههم. لم تنتهِ حيوانيتهم عند هذا الحد، بل قاموا بنحر نهديها، ثم قيدوا جسدها الطاهر إلى إحدى الأشجار وأضرموا النار فيها.

في صباح اليوم التالي، ذهبت مريم إلى السوق وحدها بعد أن عرفت الطرق واعتادت الناس هنا، وحملت معها ريحانة التي داعبتها طوال الطريق.

وصلت إلى السوق، وابتاعت مستلزمات الدار وبعض التوابل التي طلبتها السيدة والدة نضال؛ استلزم الأمر ساعة من الزمن. اشترت حلوى القطن لريحانة ثم همت بالعودة إلى الدار، لكن أمرًا ما استوقفها؛ تجمعٌ من الناس أمام محل الفاكهة وصوت بكاء وعراك. ذهبت تستطلع الأمر فوقفت تشاهد ما يحدث.

كان بائع الفاكهة يمسك بتلابيب صبي في عمر الحادية عشرة، قصير القامة، نحيف الجسد، رث الثياب، أشعث الرأس.

أيها السارق! والله لأقطعن يدك هذه التي تسرق بها.. قال البائع بغضب وهو يصفع الصبي.

أنا لم أسرق منك شيئًا أيها البدين.. رد الصبي بقوة دون أن يشعر بالخوف.

سارق وكاذب أيضًا! والله لن أتركك حتى أسلمك للشرطة يا ربيب القطط والكلاب.

أنا لست ربيب كلاب، بل أنت يا كلب... قالها الصبي بغضب، فانهال عليه البائع صفعًا وركلاً دون أن يتدخل أحد لنجدته، وكأنهم اعتادوا مثل هذه المواقف.

تخطت مريم الأجساد ثم وقفت حائلًا بين البائع والصبي.

اتركه يا هذا، ستقتله.. قالت مريم.

ليته يموت.. رد البائع.

لماذا؟ ماذا فعل لك لكل هذا؟.. سألته.

سرق التفاح، وليست المرة الأولى التي يفعل فيها هذا.

حسنًا، كم ثمن التفاح؟

لماذا يا آنسة؟

سأسدد لك ثمنه، شرط أن تتركه يرحل.

يا آنسة، لا تأخذكِ به شفقة، فهذا ابن حرام.

بل أنت.. رد عليه الصبي.

أرأيتِ يا آنسة؟ يستحق قطع لسانه.

نعم، ولكن ماذا ستستفيد من ضربه أو حتى تسليمه للشرطة؟ خذ قيمة ما سرق واتركه.. قالت مريم.

وقف البائع يفكر قليلاً ثم وافق على عرضها. نقدته مريم الثمن، ثم أخذت الصبي وريحانة وابتعدت. كان يسير إلى جوارها مطأطئ الرأس.

شكرًا لكِ.. قال الفتى بخجل.

على ماذا؟.. سألته.

على ما فعلتِ من أجلي، لم يفعل أحد هذا معي من قبل.

لا عليك، لكن لا تسرق مرة أخرى.

أنا لم أسـ... لم يكمل جملته حتى قاطعته قائلة:

لا تكذب، عيونك تفضحك.

لقد كنت جائعًا، ماذا أفعل؟

ليس مبررًا للسرقة، لو طلبت منه لما رفض إعطاءك.

يبدو أنكِ غريبة عن هنا أو تعيشين في كوكب آخر؛ هذا البائع البدين غشاش، يغش الناس في الميزان، غليظ القلب، لو وجدني سلعة لباعني.. شعرت مريم بالحزن على حاله.

أين والداك؟.. سألته.

رحلا.. رد عليها.

إلى أين؟

إلى السماء.

رحمهما الله، ومع من تعيش يا...؟

بنيامين، اسمي بنيامين، أعيش في الشارع.

لماذا؟ أليس لديك بيت تعود إليه؟

لا، انهدم إثر غارة. رحل والداي فأخذني عمي للعيش معه بجبل الزيتون، لكني هربت بعد قليل.

لماذا؟

لم أحب الحياة هناك، زوجته كانت قاسية القلب، تنعتني دومًا بابن اليهودية لأن والدتي كانت يهودية. في إحدى المرات قالت لي ذلك، فسكبت على وجهها براد الماء الساخن وهربت.

أستطيع أن أساعدك بأن أوصلك بإحدى مؤسسات الرعاية الخاصة بالطفل بدلاً من حياتك في الشارع.

لاااا، لقد أحببت حياة الشارع واعتدت عليها. صدقيني، مرافقة القطط والكلاب أرحم بكثير من البشر.. قال الصبي ثم توقف.

لماذا توقفت؟.. سألته مريم.

حان وقت العودة.. رد عليها ثم صافحها وصافح ريحانة، أخرج ثمرة تفاح ثم أعطاها لها. نظرت إليه مريم بعتاب فقال لها:

لقد دفعتِ حقها فهي حلال، أليس كذلك يا... ما اسمكِ؟

مريم يا بنيامين.

سعدتُ بمعرفتكِ يا آنسة مريم، قد نلتقي مرة أخرى.. قال لها وهو يبتعد حتى اختفى.

في إحدى البنايات الحديثة التي تقع على أطراف مدينة القدس، كان الليل يسدل أستاره فأصبح سترًا على ذلك الشبح الذي كان يتسلل نحو

تلك البناية. صعد درجات السلم نحو الطابق الخامس والأخير، توقف أمام الشقة الوحيدة الكامنة بذلك الطابق، نظر حوله ثم طرق ثلاث طرقات متباعدة. لحظات وفتح أحدهم الباب قليلاً، تسلل الشبح للداخل بينما تأكد الآخر من خلو المكان بالخارج ثم أغلق الباب.

أزال الشبح اللثام عن وجهه، فلم يكن سوى نضال.

هل الجميع بالداخل؟.. سأل نضال الشاب الواقف.

نعم، عدا يوسف، لم يحضر بعد.. رد عليه الشاب.

توجه نضال إلى إحدى الغرف ثم دلف إليها؛ كانت غرفة ضيقة نسبيًا، ليس بها أثاث يذكر سوى طاولة خشبية كبيرة يجلس عليها بعض الرجال ذوي الأعمار والهيئات المختلفة. جلس نضال فوق أحد المقاعد بعد أن حيا الجميع.

أخبرني المحامي أن الشيخ رضوان سيُطلق سراحه غدًا.. قال أحدهم وكان يدعى لبيب.

جيد، ماذا عنك يا نضال؟.. سأله أحدهم وكان يبدو عليه أنه أكبرهم عمرًا ورئيسهم، يدعى جهاد، وكان ضابط جيش متقاعدًا.

غدًا سأذهب إلى الجريدة وأسلم الأوراق إلى رئيس التحرير.. رد نضال.

دارت الكثير من الأحاديث حتى انتهى الاجتماع ورحل الجميع عدا السيد جهاد الذي استوقف نضال قائلاً:

انتظر يا نضال قليلاً.

عاد نضال إلى المقعد مرة أخرى، أغلق السيد جهاد باب الغرفة ثم جلس جوار نضال.

ماذا عن أمر الفتاة التي بدارك؟.. سأله.

ماذا تقصد يا سيد جهاد؟.. رد نضال.

الأقاويل لا تنتهي، والكثير يتحدث عن محل إعرابها في الدار.

شعر نضال بالغضب لكنه كبحه قائلاً:

لا تهمني الأقاويل فأنا لست بمحل اتهام، أما إذا ما كنت تتحدث عني وعنها، فاطمئن؛ مريم ستصبح زوجتي قريبًا.

حقًا يا نضال؟ بارك الله لكما يا بني، ولا تغضب مني فأنا أخاف عليك كما أخاف على ولدي... قال السيد جهاد ثم نهض يحتضن نضال ويربت على كتفه قبل أن يغادرا الغرفة سويًا.

تعد جريدة "الصوت الحر" من أشهر المؤسسات الصحفية الحرة بالقدس، بل وفي البلاد كلها؛ يمتلكها السيد مراد الحموي، أحد أشهر رجال الصحافة، ومن الوجوه المألوفة على شاشات التلفاز الوطني. كان مقرها يقع في حي "مطرون"، أحد أهم الأحياء التجارية بالقدس.

دلف نضال إلى مقر الجريدة برفقة مريم التي تأبطت ذراعه. كان المقر مصممًا على أحدث طراز المكاتب الأوروبية، والجريدة كخلية نحل تعج بالشباب والفتيات. توجه نضال نحو فتاة سمراء تجلس خلف مكتب زجاجي:

السلام عليكم.. قال نضال.

وعليكم السلام ورحمة الله، بماذا أخدمكما؟.. ردت الفتاة.

لدي موعد مع السيد مراد الحموي.

باسم من يا سيدي؟

نضال الغزاوي.

نظرت الفتاة في شاشة الحاسوب أمامها ثم نظرت إليه قائلة:

بالفعل، تفضل بالجلوس هنا حتى أعطيه خبرًا بقدومك.

جلس نضال ومريم فوق أريكة بغرفة الاستقبال بينما غابت الفتاة.

لماذا تنظر إليها هكذا؟.. قالت مريم.

من تقصدين؟.. رد نضال.

السكرتيرة، لا يوجد غيرها!

اتقِ الله يا أمة الله.. قال نضال يداعبها.

أنا أجمل منها.. قالت مريم.

بالطبع يا مريمتي، وهل هناك وجه مقارنة بالأساس؟.. "الأنثى هي الأنثى لن تتغير".. قالها بصوت خافت.

ماذا تقول؟

لا شيء، السكرتيرة قادمة.

عادت السكرتيرة وهي تشير نحو غرفة رئيس التحرير:

تفضلا، السيد مراد في انتظاركما.

شكرها نضال بينما نظرت إليها مريم شزرًا. كانت غرفة السيد مراد الحموي مريحة للغاية، تتوفر بها كل وسائل الراحة الحديثة، من مكتب فخم وواجهة زجاجية تطل على مشهد جميل ونظام تكييف ممتاز. كان السيد مراد يجلس خلف مكتبه بكامل أناقته، ورائحة عطره المميز تزكم الأنوف؛ نهض محييًا ثم أشار إليهما بالجلوس.

أهلاً وسهلاً بكما.. قال السيد مراد.

أهلاً بك سيد مراد.. رد نضال.

قبل أي شيء، ماذا تشربان؟

لا شكرًا، لن نطيل عليك.

لابد من احتساء شيء معًا، ما رأيكما بالقهوة؟

حسنًا، لتكن قهوة "مضبوطة".

شرع السيد مراد الحموي يتحدث عن أحوال البلاد، وضرورة وجود شباب كنضال يدافعون عن قضية الوطن، وأهمية عرض القضية في كل المحافل الدولية، حتى دق باب الغرفة فأذن السيد مراد بالدخول؛ دلف الساعي يحمل ثلاثة أكواب خزفية من القهوة، وضعها فوق الطاولة ثم رحل.

لقد جئتُ لك اليوم لأسلمك الأوراق التي أخبرك بشأنها السيد جهاد، ها هي.. قال نضال وهو يضع حقيبته الجلدية فوق ساقيه، ثم أخرج منها ملفًا بلاستيكيًا وضعه أمام السيد مراد. تناول مراد الملف ثم وضعه في درج مكتبه.

أشعر بالسعادة لرؤية شباب مثلك يا نضال، وأتأكد أن الوطن بأمان حين أراكم، أليس كذلك يا آنسة؟.. قال السيد مراد.

أومأت له مريم برأسها مبتسمة.

شكرًا لك سيد مراد، أعلم أن تلك الأوراق أصبحت في مكانها الصحيح، وأنك لن تبخل بجهد لاستغلالها في قضيتنا الشريفة.. قال نضال.

تسعدني ثقتك يا نضال، واطمئن، فهذه الأوراق ستكشف زيف الكثيرين بإذن الله.. رد السيد مراد.

حسنًا، نستأذن نحن، شرفتُ بلقائك سيد مراد.

أنا أيضًا، شرفتُم المكان.

نهض نضال ومريم مغادرين، بينما جلس السيد مراد مسترخيًا في مقعده الوثير يداعب شاربه المنمق، ثم رفع سماعة مكتبه قائلاً:

لماذا لم تضع الهيل في قهوتي أيها الغبي؟!

تم الإفراج عن الشيخ رضوان وعادت ريحانة إلى دار جدها، بعد أن تعلقت مريم بها بشدة. حتى كان ذات يوم استيقظ فيه أهالي القرية على رحيل الشيخ رضوان؛ لا أحد يعلم أين ذهب، حمل الصغيرة ورحل. شعرت مريم بالحزن، وهو الأمر الذي لاحظه نضال، فأراد أن يبدد عن قلبها هذا الشجن فطلب خطبتها؛ القرار الذي أسعد قلبها ورحب به الجميع، وانهالت المباركات على الحبيبين. ابتاع نضال زوجين من الخواتم حفر عليهما اسماهما، حيث استقر اسم مريم في إصبع نضال والعكس.

أقيم حفل الخطبة في باحة الدار وسط الأهل والجيران، تعالت الزغاريد ورقصت النسوة وغنى الرجال؛ كانت ليلة لن تنساها مريم طيلة حياتها رغم كل ما ستمر به لاحقًا.

في الثامن من يوليو عام ٢٠١٤، شنت القوات الإسرائيلية الحرب على غزة؛ كانت المستشفيات والشوارع والخيام متكدسة بالجرحى والشهداء، مع نقص حاد في الإمدادات الطبية والتمريضية، ففتحت جمعية الهلال الأحمر باب التطوع. تقدم الكثير من الشباب، وكان من بينهم مريم ونضال، حيث أصرت مريم على المشاركة قدر استطاعتها لإنقاذ الجرحى.

توجهت مريم برفقة قافلة طبية إلى جنوب قطاع غزة، حيث تم توزيعهم على المستشفيات والخيام؛ اختيرت مريم ضمن مجموعة توجهت نحو مستشفى "الشفاء" الطبي، بينما ذهب نضال برفقة أصدقائه للبحث عن الأحياء تحت ركام المنازل.

كان المشهد قاسيًا ومؤلمًا على نفس مريم؛ الخراب في كل مكان، رائحة الموت هي المسيطرة، لون الدماء هو الغالب، وصوت الدمار هو المتحدث الوحيد. كل شيء حولها يئن ويصرخ؛ للوهلة الأولى شعرت بالدوار وكادت تفقد وعيها، فجلب لها الطبيب المسؤول مقعدًا متهالكًا.

اجلسي يا مريم، إن كنتِ تشعرين أن الأمر يفوق تحملك، فأنا أستطيع إعادتكِ إلى القدس مرة أخرى.. قال لها الطبيب.

لا، فأنا أرغب في المساعدة، وهذا أقل ما يمكنني فعله، أنا فقط لم أعتد على هذا المشهد.. ردت مريم.

حسنًا، خذي وقتكِ، وحين تشعرين أنكِ مستعدة سأكون بانتظاركِ.. قال الطبيب ثم تركها وعاد لعمله.

تمالكت مريم جأشها ثم نهضت تعون الطبيب في الإسعافات الأولية وتقطيب الجراح، حتى اعتادت أن تملك أعصابها قدر المستطاع.
مرت الأيام داخل المشفى ثقيلة، الإمدادات شحيحة، والأدوية تكاد تنفد، وأعداد المصابين تتزايد حتى افترشت أجسادهم الطرقات.

ذات يوم، كانت أبواق سيارات الإسعاف لا تكف عن الصراخ حاملة عشرات الجرحى إثر غارة جديدة. الجميع يركض في كل اتجاه.
كانت مريم تقف في غرفة العمليات حين دخلت حالة جديدة لسيدة مصابة بجرح غائر في رأسها أدى إلى نزيف شديد في المخ، لن تفلح معه أي إسعافات، لكن الأشد ألمًا أنها كانت حبلى في شهرها الثامن.

طفلي.. أنقذوا طفلي.. قالت السيدة بصوت واهن.

لا عليكِ، ستكونين بخير أنتِ وطفلكِ.. قالت مريم بينما يحاول الطبيب إيقاف النزيف دون جدوى.

أرجوكِ أنقذي طفلي، لقد انتظرته طيلة خمسة عشر عامًا.. أعلم أني راحلة، أشعر بذلك، طلبي الأخير أن أرى طفلي قبل أن أموت.

لا تقولي هذا، سترينه وتربينه أيضًا.. قالت مريم وهي تربت على جبينها بينما تقدم طبيب التخدير.

استمرت الولادة القيصرية قرابة النصف ساعة، لم تترك فيها مريم يد السيدة، حتى سمعت صرخات الوليد وهو بين يدي الطبيب، بالتزامن مع أنفاس والدته الأخيرة. تناولت مريم الرضيع من يد الطبيب، احتضنته، ثم جلست أرضًا وانخرطت في نشيج طويل.

• مجموعة BNC للإنشاءات والتعمير .. القاهرة

جلس معتز يهز ساقه اليمنى بتوتر، بينما ينقر بأصبعه فوق سطح طاولة مكتبه. كان متوترًا ويبدو عليه الإرهاق والتعب الشديد، والهالات السوداء تزين أسفل عينيه. اكتسب عادة جديدة ألا وهي التدخين؛ أطفأ عقب سيجارته الخامسة خلال نصف ساعة، ثم احتسى آخر رشفة من كوب قهوته الثالث وهو يعبث بالقلادة التي تزين عنقه على هيئة مصحف.

أنت هكذا تقتل نفسك ببطء.. قال له زميله في الشركة.

اختفت.. لا أثر لها. سألتُ عنها في كل مكان ولا فائدة، ستة أشهر مرت منذ سفرها ولم تعد، ولا أعلم لها مكاناً.. رد معتز بعصبية وهو ينظر إلى القلادة مردفاً: وكأنها تعلم أنها لن تعود.

من يدري يا معتز ما قد يكون حدث لها؟ فأنت تعرف الوضع هناك، والغارات والقصف الذي لا يهدأ.

لا يا عمر، رهف حية.. لا تقل هذا.

لم أقصد يا صديقي، أنا فقط أفكر معك.

قد تكون التقت بوالدها و... لا أعلم، لا أعلم.. اشتقتُ لها كثيراً.

وقف عمر زميل معتز يفكر قليلاً ثم قال:

هل تعرف عنوان والد رهف؟

نعم، لقد تركت لي رهف العنوان قبل أن تسافر.. رد عليه معتز.

حسناً، أعلم مَن قد يساعدك على العبور إلى فلسطين، إن كنت ترغب في الذهاب للبحث عنها.

انتفض معتز من مكانه:

يا ليت يا عمر! فقد حاولتُ كثيراً لكن الأمر شبه مستحيل، ولكن كيف؟

وحده الشيخ "يثرب" من يستطيع تأمين مرورك إلى هناك عن طريق الأنفاق، لكن الأمر يتطلب مبلغاً مالياً.

لا يهم، ليأخذ ما يريد من أجل أن أجدها.

حسناً، سأتحدث مع شقيقي المقيم بسيناء ليمهد لك الأمر.

شعر معتز ببارقة أمل تلوح له في الأفق؛ فمن أجل رهف هو مستعد أن يضحي بالكثير.

حاول نضال أن يخرج مريم من حالتها النفسية السيئة بعد الذي شاهدته وعايشته طيلة ثلاثة أسابيع كاملة في غزة، حيث لزمت الحجرة لا تغادرها إلا للضرورة؛ تستيقظ ليلاً مفزوعة خائفة وهي تصم أذنيها، وعافت نفسها الطعام إلا ما ندر حتى تناقص وزنها.

خشي كل من بالدار أن يتدهور وضعها أكثر من ذلك، فجلست السيدة والدة نضال مع ابنها في حجرته:

وضع مريم لا يبشر بخير يا بني، أخشى عليها من المرض.. قالت والدة نضال.

أنتِ أيضاً يا أمي؟ حاولتُ كثيراً أن أحدثها دون فائدة، ليتني لم أوافق على تطوعها، فقلبها الرقيق لم يتحمل ما رأى.. رد نضال.

وما العمل يا بني؟

اتركي الأمر لي يا أماه.

أرى أن نعجل بالزيجة فقد تتحسن حالتها.

ليس حلاً يا أمي، كما أنني ما زلت حديث التخرج والعمل، الأمر بحاجة إلى وقت.

كما ترى يا بني، وفقك الله ورضي عنك.

بعد مرور بضعة أيام، وبينما تجلس مريم في حجرتها، سمعت صوت نضال بالخارج ينادي:

يا مريمتي!

خرجت مريم سريعاً تستوضح الأمر، فوجدته يقف بباحة الدار برفقة مجموعة من أطفال القرية.

نعم يا نضال، ما الأمر؟.. سألته بدهشة.

هؤلاء بعض أطفال القرية يرغبون في مساعدتك بتعليمهم القراءة والكتابة إن لم يكن عندك مانع.. رد عليها بابتسامة مرحة.

لستُ بحالة تسمح لي بذلك.. قالت ذلك ثم أدارت جسدها عائدة للحجرة، حين استوقفها صوت الأطفال:

أرجوكِ يا آنسة مريم..

انتفض قلبها على وقع أصواتهم الصغيرة الدافئة، فوقفت قليلاً ثم نظرت إليهم قائلة:

حسناً.. موافقة.

انطلق الأطفال يحتضنونها، بينما كانت النظرات بينها وبين نضال تفصح عن الكثير من الحب.

انخرطت مريم في دروسها، وبدأت رويداً رويداً تعود إلى طبيعتها؛ مرحة تملأ الدار سعادة. أفادها تعاملها مع الأطفال الذين تعلقوا بها كثيراً وأصبحوا جزءاً لا يتجزأ من يومها، حتى أهاليهم أحبوها وأمطروها بدعواتهم. كان الحب بينها وبين نضال يكبر يوماً بعد يوم، تشبعت به وتشبع بها.

ذات يوم، وبعد أن أنهت درسها، لاحظت غياب الطفل "موسى" لأكثر من يوم؛ ذلك الفتى ذو السبعة أعوام، بهي الطلعة بسمرته المحببة ولسانه الذي ينطق الراء ياءً، فكان يدعوها "الآنسة مييم". كانت تنطلق بالضحك كلما ناداها به، كما حاولت كثيراً أن تجعله ينطق الحرف سليماً دون جدوى. سألت الأطفال عن سر غيابه، فأخبروها أن جدته لأبيه التي يعيش بكنفها مريضة.

في ذات الليلة أعلمت نضال بالأمر، فأخبرها أن موسى يعيش في دار صغيرة برفقة جدته منذ عامين، حيث توفي والده إثر حادث سير، فتزوجت والدته ورحلت برفقة زوجها إلى قرية مجاورة حيث يعمل؛ زوجها الذي رفض قدوم الطفل معها بحجة أنه سيكون حملاً لن يقدر عليه.

تأثرت مريم بقصة موسى فقررت زيارته في اليوم التالي. وقفت أمام دار جدة موسى بعد أن دلتها والدة نضال على المكان النائي، وتعجبت كثيراً كيف يقطع هذا الطفل الصغير تلك المسافة يومياً حتى يحضر الدرس. طرقت الباب ثم وقفت تنتظر حتى فتح لها موسى.

آنسة مييم!.. قال موسى بدهشة.

نعم، آنستك مريم. كيف حالك أيها الصغير؟

بخير.. كيف جئتِ إلى هنا؟

ستتركني هكذا واقفة؟ لندخل أولاً.

آه.. معكِ حق، نسيت.. قال موسى ثم أفسح المجال لمريم للدخول.

كانت الدار بسيطة للغاية، من طابق واحد عبارة عن حجرتين. جلست مريم فوق أريكة متهالكة مفروشة بسجادة صوفية قديمة.

ماذا تشربين يا آنسة؟.. سألها موسى.

لا شيء، كيف حال جدتك؟

ليست بخير، أصبحت لا تغادر الفراش وتزهد في الطعام.

هل أستطيع رؤيتها؟

بالطبع يا آنسة مييم.

رافق موسى آنسته مريم نحو الحجرة الأخرى، حيث كانت ترقد جدته فوق فراش رث قديم مغطاة بشرشف صوفي؛ جسدها هزيل بينما تجلس بجوارها جارة لهم تعتني بها.

السلام عليكم.. قالت مريم.

وعليكم السلام والرحمة، الآنسة مريم أليس كذلك؟.. ردت الجارة.

نعم أنا هي.

موسى لا يكف عن الحديث عنكِ، يحبكِ كثيراً.. قالت لها الجارة، فنظرت مريم لموسى قائلة:

أنا أيضاً أحبه. مما تعاني الجدة؟

هي مريضة بسرطان الكلى، كما أنها استأصلت كليتها اليسرى منذ عامين. الأطباء يقولون إنها بحاجة إلى جلسات كيماوي، لكنه غير متوفر بالعيادات الحكومية، والوضع كما ترين؛ لا تملك حق جلسة واحدة بالمستشفيات الخاصة، كما أنها لا تغادر الفراش.

ألا يوجد أقارب لها هنا؟

لم يكن لها سوى ابنها والد موسى، رحمه الله.

هاتفت مريم نضال وأخبرته بوضع جدة موسى، فوعدها أن يساعدها قدر المستطاع. وفي الأيام التالية استطاع نضال بمعاونة البعض أن يؤمن لجدة موسى مكاناً بإحدى المستشفيات الخاصة، على أن يظل موسى بدارهم لحين عودة جدته. الأمر الذي لم يطل كثيراً، حيث أسلمت الجدة روحها بعد ليلتين فقط في المشفى. تم الدفن في مقابر القرية، وأقيم العزاء بدار الشيخ بدر الغزاوي ثلاث ليالٍ كاملة.

في تلك الأثناء، أرسل نضال لوالدة موسى مرسالاً يخبرها بالأمر، فما كان منها إلا أن قدمت برفقة زوجها في الليلة الثالثة. بعد أن انفض العزاء، دلف نضال برفقة زوجها إلى داخل حجرته، بينما جلست والدة موسى برفقة النسوة تحمل فوق صدرها طفلاً رضيعاً. بعد قليل خرجا، فقال نضال موجهاً كلماته إلى موسى الذي كان يجلس جوار مريم بعيداً عن والدته:

موسى.. والدتك ترغب في أن تأخذك لتعيش معها برفقة زوجها وأخيك الرضيع.

الآن تذكرت أن لها ابناً؟ أين كانت كل تلك السنوات؟ ألم تفكر بليلة وهي نائمة بحضن زوجها كيف ينام طفلها؟ هل أكل؟ هل شرب؟ أيّ أم تلك؟.. ردت مريم بانفعال وهي تنظر لوالدة موسى بغضب.
انخرطت الوالدة في البكاء وشاركها رضيعها.

هي أمه في النهاية يا مريم، ويحق لها هذا، ثم إن القرار في النهاية لموسى.. قال نضال.

بعد إذنك يا سيد نضال.. قال زوج والدة موسى.

تفضل يا سيد عامر.

إن كان أحد مخطئاً بشأن موسى فهو أنا؛ أنا من رفضت أن يعيش معنا، كنت أنانياً للغاية ولم أفكر سوى في مصلحتي، لكني أشهد أمام الجميع أنني سأكون أباً ثانياً لموسى إذا ما وافق على العيش معنا.

ها يا موسى، هل توافق على الذهاب مع والدتك؟.. سأله نضال.

طاف موسى ببصره بين والدته الباكية ومريم الحزينة ثم حسم قراره قائلاً:

موافق.

أشرق وجه والدته وابتهجت، لكنه أردف قائلاً:

شرط أن تسمحوا لي بزيارة آنستي "مييم" كل شهر مرة.

موافق طبعاً.. قال زوج والدته.

رحل موسى برفقة والدته بعد أن وعد مريم أن يزورها دوماً، ثم ترك لها دفتره بعد أن كتب في ورقته الأخيرة:

"أحبكِ يا آنستي مريم".. موسى.

رفح المصرية – شمال سيناء

توقفت سيارة دفع رباعي وسط صحراء سيناء في منتصف الليل، هبط منها شخصان؛ أحدهما معتز، والآخر شقيق عمر زميل معتز. سارا حتى توقفا أمام ثلاثة أشباح يرتدون الزي البدوي، أحدهم الشيخ يثرب، والآخران شاب صغير وشيخ ملتحٍ.

السلام عليكم.. قال شقيق عمر.

وعليكم السلام يا أخ محمد.. رد الشيخ يثرب.

الشيخ يثرب يا معتز.. أعرفك بمعتز يا شيخ يثرب.

أهلاً يا أخ معتز.

أهلاً بك يا شيخ يثرب.. قال معتز بتوتر بادٍ.

ما بك يا أخ معتز؟ هل تشعر بالخوف؟.. سأله الشيخ.

بعض الشيء.

لا تخف يا معتز، أنت في يد أمينة؛ فالشيخ يثرب كبيرنا هنا.. قال شقيق عمر.

من أصلك يا أخ محمد.. قال الشيخ يثرب، ثم ربت على كتف الشاب الواقف بجواره مردفاً: هذا هو "عمير"، سيكون رفيقك حتى تصل

إلى الضفة الأخرى. المكان داخل النفق رطب وخانق، فارتدِ ملابس خفيفة.

حسناً يا شيخ يثرب.. رد معتز.

اقترب محمد من الشيخ يثرب ثم نقده مبلغاً، فقبل الشيخ يثرب الأموال وسلمها للشيخ الواقف عن يساره.

ستقابل على الضفة الأخرى الشيخ "نوري"، وسيتكفل برعايتك طوال فترة مكوثك هناك.. قال الشيخ يثرب.

ودع معتز الجميع ثم حمل حقيبة ظهره يتبع عميراً، على وقع صوت الشيخ وهو يدعو لهما بالسلامة، بينما تبتلعه غياهب النفق.

كانت الشمس تودع الأرض بحمرة الخجل كزهرة تغفو في حضن السماء. جلست مريم فوق سطح الدار ترعى قطيع البط الذي تمتلكه السيدة أم نضال، تشاهد طيور اليمام وهي تهبط بخفة فوق آنية الماء والحبوب، تلتقط منها ثم تهرب محلقة مع أقل حركة. كان كل من بالدار قد خرج في ذلك اليوم عداها؛ هدوءٌ يسبق العاصفة، تشعر مريم بأمر ما يُنفذ في السر لا تعلم ماهيته. طردت الأفكار السيئة من رأسها، ثم تناولت كتاباً من جوارها حيث حددت الصفحة التي توقفت عندها بريشة؛ كانت رواية "زمن الخيول البيضاء" للكاتب الفلسطيني إبراهيم نصر الله، وشرعت تكمل قراءتها:

"لم يكن الزيتون قد وصل المقابر بعد.. أي مجنون ذاك الذي يترك زيتونة في المقبرة إلى الأبد وحيدة؟ الزيتون شيء آخر.. كانت أم علاء توبخنا إذا ما جاءت سيرة الموت على ألسنتنا في كروم الزيتون: هذا سيجعل الزهر يسقط.. الزيتونة كالمرأة الحامل، علينا ألا نخيفها بمثل هذه الأحاديث".

توقفت مريم فجأة عن القراءة، وطوت صفحة الكتاب عند سماع صوت مزامير وقرع طبول بالخارج، فتوجهت نحو سور السطح المطل على الشارع. رأت جمعاً من أهالي القرية قادمين يتوسطهم نضال، يرتدي عباءة بيضاء مع غترة سوداء كفارس عربي، بينما تتبعه النساء بالزغاريد والأطفال بالرقص. كانت والدة نضال تحمل طاولة تقديم نحاسية مفروشة ببتلات الورود الحمراء والبيضاء، استقر فوقها خاتم ذهبي لامع. توقف الجمع أمام الدار وعم الصمت.

مريم.. قال نضال وهو ينظر لها من الأسفل. ارتبكت مريم وتلجم لسانها حتى شعرت أنها فقدت النطق، فأعاد نضال الكرة مرة أخرى:

يا مريم.. هل تقبلين الزواج بي؟

لم تدرِ مريم ماذا تفعل، فاكتفت بهز رأسها علامة الموافقة، حينها انطلق العزف والزغاريد مرة أخرى. صعد نضال نحو مريم التي كانت تشع سعادة، هبطا سوياً ثم ألبسها خاتم الزفاف. استمر الاحتفال حتى الصباح، وبارك لهما الجميع وتمنوا لهما السعادة.

حي الشجاعية – غزة

داخل إحدى البنايات القديمة المتهالكة، المبنية على الطراز المملوكي من الأحجار الكبيرة في نهاية أحد أشهر شوارع غزة القديمة، كان يقف في غرفة صغيرة تشققت جدرانها ونسج العنكبوت خيوطه فوق سقفها الخشبي. سرير معدني صغير مبعثر الفراش مع طاولة خشبية صغيرة ومقعد وحيد؛ تلك هي كل محتويات الغرفة التي يقيم بها معتز.

كان ينفث دخان سيجارته الرابعة وهو متكئ على الجدار الملاصق للنافذة التي تطل على شواهد ذلك الحي القديم. مر خمسة عشر يوماً منذ قدومه إلى هنا، نادراً ما غادر الغرفة؛ فالشيخ نوري يتواصل

معه عن طريق هاتف "اللوكاندة". في آخر مرة هاتفه فيها، أخبره أنه لم يتوصل بعد لأي معلومة عن مريم، كما أن الطريق نحو القدس محفوف بالمخاطر هذه الأيام والكمائن منتشرة في كل الطرق؛ عليه أن يمكث بعض الوقت لحين إشعار آخر.

أطفأ عقب سيجارته بسور النافذة الخشبي ثم تابع سرباً من الطيور المحلقة. يشعر بالملل الشديد، سار يطوي الغرفة بقدميه العاريتين حتى قرر أن يسير في شوارع المدينة وإن حذره الشيخ نوري من ذلك. ارتدى ثيابه وانتقل إلى مكتب الاستقبال، حيث تقف فتاة سمراء البشرة، نحيفة الجسد، مجعدة الشعر، ترتدي بنطال جينز وقميصاً مفتوحاً. كانت تدخن سيجارة وهي تقلب قنوات التلفاز.

اقترب معتز منها وناولها مفتاح الغرفة وهمّ بالخروج.

إلى أين؟.. سألته الفتاة.

سأسير قليلاً في الحي.. رد معتز.

لكنك غريب وقد تضل الطريق، كما أن الشيخ نوري أوصاني ألا أدعك تغادر أو تفعل أمراً يعرضك للخطر.

أفهم من ذلك أنه قد تم تحديد إقامتي، أم أنني رهن الاعتقال؟.. قال معتز بعصبية. اقتربت الفتاة منه مبتسمة:

الأمر ليس كذلك يا سيد معتز، كل ما في الأمر أن الشيخ نوري يهتم بحمايتك؛ أنت هنا وضعك غير قانوني وليس لديك أوراق ثبوتية معترف بها، قد تقبض عليك الشرطة في أي وقت.

وما ذنبي أنا إن كان الاحتلال يضيق علينا؟

قل ما ذنبنا جميعاً يا سيد معتز.. إنها سياسة الاحتلال الظالمة في بلد ينهش فيه الكبير والصغير كضباع تجتمع حول غزال وحيد. ثم إن كنت تود رؤية معالم المدينة، فلابد أن يرافقك "ترجمان".

وأين أجد هذا الترجمان؟

ها هو أمامك، ألا أفي بالغرض؟.. قالت له.

بالطبع تفين وأكثر.. قال معتز خجلاً.

حسناً، انتظر فقط حتى منتصف الليل حين تستيقظ والدتي لتتسلم العمل مني؛ فالليل ستار كما يقولون. موافق؟

موافق.

جيد، خذ سيجارة ماركة "هتلر".. قالت وهي تمد يدها بسيجارة سوداء. تناولها منها ضاحكاً ثم عاد إلى غرفته، لكنه استدار ثانية وقبض على سور السلم الخشبي:

لم أعرف اسمكِ بعد.

زينب.. اسمي زينب.. ردت مبتسمة.

تشرفت بمعرفتك يا زينب.

الله أعلم، قد أكون عكس ذلك.. قالتها، فانطلقا كلاهما في الضحك.

كانت شوارع المدينة العتيقة الحزينة نائمة، تغفو بحذر تنتظر صوت الرصاص والدمار في أي وقت، بينما يسير شبحان متجاوران، أحدهما طويل والآخر قصير.

اعتقلتُ أكثر من مرة، لكني في كل مرة كنت أخرج فيها أقوى من ذي قبل. عملي كصحفية ونشأتي وسط الدمار والحرب جعلتني صلبة لا آبه لأي شيء. سأموت؟ وما الغريب؟ جميعنا سنموت، لكن الفارق هو "كيف" سنموت؛ هل سنموت كالجرذان أم كالأسود؟ وأنت لست جرذاً.. علمني أبي كيف يضحي المرء ويقاتل حتى الموت في سبيل حريته وكرامته.. قالت زينب وهي تسير بجوار معتز تدخن.

هل تمتلكين هذا المنزل الذي أقيم به؟.. سألها معتز.

هو ملك والدتي، ورثته عن جدي. بعد وفاة والدي في المعتقل لم يكن لنا مصدر رزق، فقررت والدتي تحويل المنزل إلى "لوكاندة" ليدر علينا المال.. ردت زينب، ثم صمتت لبرهة وقهقهت: لكنه لم يجذب سوى المفلسين أمثالنا، فالطيور على أشكالها تقع، أو كما تقولون يا أهل مصر "اتلمّ المتعوس على خائب الرجاء".

تقصدين المنحوس.

لن يهم، لن يغير من المعنى شيئاً.. أخبرني، هل تحبها؟

مَن هي؟

خطيبتك.

بالطبع، وإلا لما عرضت حياتي للخطر بالقدوم إلى هنا بحثاً عنها.

غريب هو الحب؛ يجعلك تختزل العالم كله في شخص واحد، يصبح هو محور حياتك والمدار الذي تطوف في فلكه، كما لو أنك خُلقت فقط من أجل هذا الشخص.

ما كل هذه المعاني الجميلة! يبدو أنكِ وقعتِ فيه من قبل، فتلك الكلمات لا تصدر إلا عن شخص ذاق الحب.

تنهدت زينب طويلاً ثم قالت:

كان ثورياً حراً، كبرنا معاً وكان هو ملاكي الحارس. لم أشعر يوماً بالخوف في وجوده، كنت أفعل المصائب دون تفكير، فمن ذا الذي يستطيع الاقتراب مني و"مصطفى" معي؟

اسمه مصطفى؟

لم نفترق يوماً.. لا زلت أتذكر المرة الأولى التي قبلته فيها.

شعر معتز بالخجل، فنظرت إليه ضاحكة بألم:

نعم، كما سمعت، أنا من قبلته.

عادت زينب بذاكرتها إلى الوراء؛ كان عرس شقيقة مصطفى الكبرى، والجميع يغني ويرقص. كانت زينب تتراقص برفقة العروس وبنات الحي حين اقترب منها شاب يتمايل معها، فاستشاط مصطفى غيرة وجذبها من ذراعها نحو الخارج.

ما بك؟.. سألته زينب.

تسألين؟ كيف ترقصين هكذا مع فادي؟.. قال مصطفى غاضباً.

أتغار يا مصطفى؟.. قالت زينب مبتسمة.

نعم أغار، وبشدة.

أعشقك وأنت غاضب، تبدو وسيماً.. قالت مداعبة.

كفي عن هذا، إياكِ أن ترقصي أمام أحد مرة أخرى.. قال لها بغضب مفتعل.

اممم.. حتى أنت؟

أنا.. زينب أنا أحبكِ للغاية.

دنت زينب بوجهها من وجهه حتى لفحته أنفاسها قائلة بمس: "وأنا أيضاً أحبك"، ثم طبعت فوق شفاهه الدافئة قبلة طويلة اختزلت كل الحب والاشتياق.

انتبهت زينب على مذاق ملوحة عبراتها وهي تسير بجوار معتز الذي شعر بالارتباك.

آسف أني ذكرتكِ بما يؤلمكِ.. قال معتز.

لا عليك، غريب أمر الذكريات؛ قد تكون في أصلها جميلة، لكن حين يرحل من شاركك بها تصبح ذكرى تؤلمك كلما تذكرتها.. ردت زينب.

عذراً للسؤال، ولكن أين هو الآن؟

سافر في أحداث غزة الأخيرة.

تقصدين مات؟

لم أقلها يوماً.. هو بالنسبة لي "مسافر"، وذات يوم سألحق به.. قالت زينب ثم طلبت من معتز أن يشعل لها سيجارة جديدة بينما يقتربان من اللوكاندة مع انبلاج فجر يوم جديد.

مرت الأيام على مريم سعيدة هانئة، لا يعكر صفو سمائها شيء؛ حبيبها إلى جوارها، وبشائر الحمل بدأت تتشكل داخل رحمها، فماذا

تريد أكثر من ذلك؟ كانت تدعو في كل صلاة أن يحفظ لها أسرتها من كل مكروه. حين أعلمت والدة نضال ابنها بخبر حمل مريم لم تسعه السعادة، ركض مسرعاً نحو حجرته فوجدها ترتب الفراش، فجذبها من ذراعها قائلاً:

لاا.. ليس بعد اليوم!

لماذا يا حبيبي؟ أنا حبلى ولست مريضة.. ردت مريم ضاحكة.

لا يهم، من اليوم لا مجهود، فقط الراحة.

يبدو أنك تشاهد الكثير من الأفلام العربية يا حبيبي.. قالتها وهي تضحك.

أووه يا مريمتي.. رد عليها بنفاد صبر.

حسناً، كما تريد.. قالت ذلك ثم جذبته ليجلس جوارها فوق الفراش مردفة: هل أنت سعيد؟

أيما سعادة! حين كنت صبياً كنت أسأل والدتي: لِمَ ليس لي أخ كباقي رفاقي؟ كانت تقول لي: عندما تكبر وتتزوج سيرزقك الله بصبى يكون ابنك وشقيقك وحبيبك.

ومن أدراك أنه صبي؟ قد تكون فتاة.

صبي إن شاء الله، فالولد عضد أبيه وسنده في الحياة.

لكني أرغب في فتاة.. قالتها بدلال.

فتاة أو صبي، مادام منكِ ويشبهكِ فلا يهم.

احتضنت مريم وجه نضال بين كفيها قائلة:

أحبك يا صاحب الظل الطويل.

من أين أتيتِ بهذا الاسم؟.. سألها مستغرباً.

لا أتذكر، يبدو أني قرأته في أحد الكتب من قبل.

مقر الجماعة

كان نضال مجتمعاً بباقي أعضاء الجماعة الوطنية برفقة وجه جديد؛ كهل تجاوز الثمانين ربيعاً، يرتدي الزي الفلسطيني التقليدي ويقبض على عصا من الأبنوس. كانت التجاعيد لوحة سريالية حية في وجهه، تستطيع أن ترى أوردته الزرقاء المائلة للخضرة عبر جلده الشفاف.

مبارك عليك يا نضال، رزقك الله صبياً يحمل اسمك.. قال السيد نورس.

بارك الله لك يا سيد نورس.. رد عليه نضال، فانهالت التبريكات من الجميع.

الآن أعرفكم بالشيخ جابر السعدي، كبير عائلة السعدي المعروفة بيافا.. قال السيد نورس ثم أردف قائلاً: لقد كان شاهداً على المجازر التي حدثت لأهل يافا.

جابر السعدي، ذلك الكهل الفلسطيني الذي سُلبت منه أرضه كأغلبية أهل يافا حينذاك؛ في عام ١٩٢٠ قدم والده للعمل في البناء، استقر هناك وتزوج من أهل البلد وسارت الحياة طبيعية، ولم يعكر صفوها غير هذا الهجوم البربري الذي شنته القوات الصهيونية على البلدة. في البداية، يذكر الشيخ كيف قامت القوات بجمع الأهالي داخل "الغيتو"، لكن رجال البلدة لم يستسلموا لهذا العدوان، حيث اتجهوا

نحو الحدود واشتبكوا هناك مع القوات التي قتلتهم، أما الباقي من أهل البلدة من نساء وأطفال وعجائز فحاصروهم بالأسلاك الشائكة. يتذكر كيف كانت والدته تخشى عليه من الخروج لجلب الخبز، فكانت تذهب بنفسها بعد أن استشهد والده، حتى ذات صباح خرجت ولم تعد. هُجّر بعد ذلك الشيخ مع آلاف العائلات التي أُجبرت على ترك ديارها ووطنها من أجل لقطاء مجهولي النسب.

لقد كنا قررنا أن نولي المهمة القادمة للرفيق نضال الغزاوي، لكن بسبب ظروف حمل زوجته فأرى أن نختار رفيقاً آخر.. قال السيد نورس.

لماذا يا سيد نورس؟ أنا لم أتراجع ولن يُكلف أحد غيري بالمهمة، فأنا مستعد لها.. رد نضال محتجاً.

لكن يا نضال المهمة هذه المرة ليست بالسهلة، فستكون داخل وكرهم وحياتك قد تهددها الأخطار.

أنا على أتم الاستعداد للتضحية بروحي في سبيل الوطن.

تنهد السيد نورس قائلاً: على بركة الله. سيعاونك الشيخ على العبور إلى هناك، أما باقي الأوراق فستكون جاهزة خلال يومين على أقصى تقدير.

انتهى الاجتماع ورحل نضال برفقة يوسف، الذي عُين مؤخراً كمترجم بجريدة "الصوت الحر".

ثلاثة أشهر كاملة قضاها معتز بحي الشجاعية، لم يبدد غيوم الملل من سمائه سوى وجود زينب إلى جواره، التي لم تتركه يوماً؛ كانت بالنسبة له قبساً من نور أضاء عتمة روحه في هذا المكان الجديد عليه. كانت تصطحبه كل ليلة ويتسللان داخل الأزقة والحارات،

وتطعمه أكلات جديدة عليه. كانت أنثى بكل ما للكلمة من معنى؛ جريئة، لا تخشى شيئاً، ومقبلة على الحياة، تصفعها الحياة فترد لها الصفعة صفعتين. عيبها الوحيد بالنسبة له أنها تتناول الكحول بين الحين والآخر، ولهذا الأمر حادثة؛ حيث كان معتز نائماً بغرفته حين تناهى إلى سمعه صوت صرير الباب الخشبي وهو يُفتح، انتفض جالساً فوق الفراش يتحسس قابس الإضاءة المجاور له (حيث اعتاد النوم في الظلام المعتم)، فشعر بيد أحدهم تقبض على ذراعه.

مَن هنا؟.. تساءل معتز مذعوراً.

هششششش... أنا زينب.. قالت بصوت مخمور تفوح منه رائحة الخمر.

زينب! ما الذي أتى بكِ إلى هنا في هذا التوقيت؟

أنا حزينة للغاية يا مصطفى.. ووحيدة.

أنا لست مصطفى.. يبدو أنكِ شربتِ كثيراً الليلة، هيا بنا للأسفل.. قال معتز وهو يهم بالنهوض لكنها دفعته فعاد مستلقياً.

أعلم أنك معتز.. أنا لم أسكر.

إذاً فمن الأفضل لكِ مغادرة الغرفة، الوضع هكذا ليس سليماً.

حسناً سأرحل، لكن لي رجاء واحد عندك لا ترفضه.

تفضلي يا زينب.

قبلني مرة واحدة فقط.. قالت له وهي تدنو بوجهها منه.

لا أستطيع يا زينب.

أرجوك، مرة واحدة فقط لا أكثر. أعلم أنك تحب رهف، لكن اعتبره طلباً أخيراً من امرأة محطمة.

صمت معتز لا يدري ماذا يفعل، فالوضع مربك وصعب، لكن زينب لم تمهله الكثير من الوقت للتفكير، حيث وضعت شفتيها فوق شفتيه الدقيقتين، فاستجاب لنداء جسدها دون تفكير، ولم تغادر غرفته إلا في الصباح.

جلست مريم تعد حقيبة السفر الخاصة بزوجها نضال في الليلة التي سيرحل فيها، كانت تضع ثيابه وعبراتها لا تكف عن الهطول فوق وجنتيها. دلف نضال إلى داخل الحجرة بعد أن ودع والدته وشقيقته زهرة، فشعر بغصة لمرأى مريم على هذا الحال. اقترب منها مداعباً وهو يضع يده فوق بطنها المتكور:

اعتني بوالدتك أيها البطل.. قال ذلك كأنه يتحدث مع طفله الذي أصبح حقيقة حية أمامه.

أخبر والدك ألا يطيل غيابه فنحن بحاجة إليه.. قالت مريم وهي تضع يدها فوق يد نضال.

لا تقلقي سأعود، فأنا لا أستطيع الابتعاد عنكِ كثيراً.

عدني يا نضال.. عدني أن تعود. ألم يوجد غيرك ليقوم بتلك المهمة؟

وهل ترضين لزوجك أن يكون جباناً لا يلبي نداء وطنه؟.. قال لها فتنهدت.

حتى وإن صار لي مكروه فستكونين زوجة الشـ... لم يكمل نضال جملته حيث وضعت مريم يدها فوق فمه قائلة بهلع:

لا تكمل.. ستعود، أنا لا أستطيع العيش بدونك.

تناول نضال يد مريم التي فوق فمه فقبل باطنها.

نضال يا بني.. صديقك يوسف ينتظرك بالخارج.. نادته والدته.

نهض نضال متناولاً حقيبته، ترافقه مريم وهو يحيط خصرها بذراعه الأخرى. استقل نضال العربة التي ستقله نحو وجهته مودعاً الجميع على وقع ذرف الدموع.

تحاشى معتز التعامل بل النظر لزينب في الأيام التالية بعد ما حدث، حاولت زينب أن تحدثه أو تعتذر له لكنه كان يشعر بالخيانة؛ خيانة حبيبته رهف، فقرر أن يغادر اللوكاندة. ذات ليلة، هبط معتز إلى الطابق الأرضي الذي كان خالياً، تناول سماعة الهاتف ثم أخرج قصاصة ورق سجل بها رقم الشيخ نوري، أدار قرص الهاتف الدوار ثم انتظر رد الطرف الآخر، لكن أحدهم وضع يده فوق الهاتف لينقطع الخط. نظر معتز تجاه صاحب اليد فوجد شاباً يرتدي زي الشرطة وعلى كتفيه علامة النجمة الخماسية. لم تمر لحظات حتى امتلأ المكان بأفراد الشرطة الإسرائيلية الذين أخذوا يبحثون في كل مكان باللوكاندة. وقف معتز غير مستوعب لما يحدث حوله، رأى زينب وشباباً آخرين تدفعهم أفراد الشرطة من داخل قبو المنزل. نظرت له زينب بخيبة أمل ونظرة اعتذار بينما يقيد أحدهم ذراعيها بالأصفاد، وهمّ آخر بوضع الأصفاد في ذراعيه، فحاول التملص منه قائلاً: ما الأمر؟ اتركوني أنا لم أفعل شيئاً!

فما كان رد الشرطي سوى أن ضربه بالعصا التي كان يقبض عليها فوق مؤخرة رأسه. ترنح معتز ثم سقط مغشياً عليه، وآخر ما رآه قبل أن يسبل جفونه هي صورة رهف تبتسم له.

استطاع نضال بمعاونة الشيخ موسى دخول مدينة الناصرة باسم مستعار (سليم زراحي) على اعتباره واحدًا من عرب ٤٨. كانت الخطة محددة، ألا وهي الحصول على مستندات هامة تدين بعض رجال السياسة بالبلاد وتكشف فسادهم، عن طريق التحاقه بالعمل بواحدة من أهم الجرائد هناك تدعى (الصنارة).

استطاع نضال منذ اللحظة الأولى التي وضع فيها قدمه داخل تلك الجريدة أن يكسب ثقة الجميع باعتباره واحدًا منهم، خاصة سكرتيرة رئيس التحرير "فيدا شمعون"؛ تلك الفتاة المتحررة بملابسها الجريئة ووشم التنين الذي يزين كتفها من الخلف. ما إن رأت نضال حتى قررت أن تغزل شباك فتنتها حوله، لكن هيهات أن يقع نضال في هذا الفخ، فقرر أن يستغل هذا الأمر لصالحه، خاصة حين عرضت عليه زيارتها بشقتها الخاصة الكائنة بمنطقة الحي اللاتيني.

جلس نضال فوق أريكة من الطراز الإنجليزي القديم بغرفة المعيشة الخاصة بـ"فيدا"، التي تركته لتحضر لهما شرابًا باردًا. نظر نضال إلى ساعته؛ كانت عقاربها تركض نحو التاسعة مساءً. اعتدل في جلسته حين رأى فيدا قادمة ترتدي قميص نوم شفافًا يشف عما تحته، وضعت فيدا الكؤوس فوق الطاولة المقابلة للأريكة، ثم جلست ملتصقة بنضال تضع ساقًا فوق أخرى بينما تصب "الويكي" في الكؤوس الزجاجية.

تفضل يا سليم.. قالت فيدا وهي تمد يدها بالكأس لنضال.

تناول نضال الكأس منها فضغطت بيدها على أصابعه، لكنه سحبها بلطف.

شكرًا لكِ.. قال لها.

لِمَ تجلس هكذا؟ نحن بالمنزل ولسنا بالجريدة.

أفضل الجلوس هكذا.

كما يحلو لك..

تناولت فيدا من فوق الطاولة علبة معدنية صغيرة، أخرجت منها سيجارة ثم أشعلتها.

أخبرني يا سليم، أليس لك خليلة؟

اممم.. بالطبع لدي.

لابد أنك تحبها كثيرًا.

لماذا تقولين هذا؟

من يجلس مثلك هكذا أمام فيدا دون أن يتأثر، فواحد من اثنين: إما محب، أو ليس له في النساء، وأظنك لست الأخير.

بالطبع، فأنا رجل بكل ما للكلمة من معنى، لكني أبغض الخيانة.

أتعلم يا سليم؟ السيد "ليفي" رئيس التحرير لم يستطع تحمل نظرة واحدة مني، أصبح كالخاتم في إصبعي أحركه كيفما أشاء.. قالت فيدا ذلك فشعر نضال أنه قبض على بداية الخيط، خاصة أن السكر بدأ يداعب رأسها.

سمعت أن السيد ليفي على علاقة قوية بقيادات كبيرة بالمجتمع الفلسطيني.. قال لها، فمالت برأسها على كتفه قائلة:

نعم، الكثير.. بينهم مصالح مشتركة كثيرة، يلتقون دومًا خارج البلاد لعقد صفقات مع رجال أعمال أوروبيين.

لم يعتقد نضال أن فيدا ستكون هكذا سهلة المراس وستبوح بكل شيء بسهولة.

وأين يحتفظ السيد ليفي بأوراق تلك الصفقات؟

يحتفظ بها بحجرة مكتبه بالجريدة في الخزانة الخاصة به.. قالت فيدا ثم قهقهت مردفة: أتعلم أني أملك نسخة من مفاتيح الجريدة، وعلى علم بالرقم السري الخاص بالخزانة؟

لااااا.. لا أصدق هذا.. قال لها بشكل يثير استفزاز أي أنثى يشكك فيها رجل.

إن كنت لا تصدق فها هي المفاتيح.. قالت وهي تخرج سلسلة مفاتيح من حقيبتها الخاصة، ثم أردفت: أما الرقم السري فهو ١٣٩١٩٤٨.

غفت فيدا فوق كتف نضال، فأزاح رأسها عن كتفه ثم وضعها على الأريكة، قبل أن يتناول المفاتيح ويرحل مسرعًا نحو مقر الجريدة. في طريقه اتصل بصديقه يوسف يخبره أن يستعد للقائه على الحدود برفقة الشيخ موسى.

حين أحصل على الأوراق سأهاتفك، لا أريد أي تأخير يا يوسف فوجودي هنا بعد ذلك مستحيل.

حسناً يا صديقي لا تقلق، كل شيء مُعد ومجهز.. قال له يوسف ثم أغلق الخط.

دلف نضال إلى داخل الجريدة وتوجه مباشرة نحو حجرة مكتب رئيس التحرير. وقف أمام الخزانة، سمى الله ثم أدخل الأرقام التي باحت بها فيدا فانفتحت الخزانة. بحث عن المستندات حتى وجدها، عبث بأوراقها فوجد بها أسماء لم تكن في الحسبان. احتضن الأوراق

وقبل أن يغادر المكان هاتف صديقه يوسف ليرسل له رجلاً بسيارة تأخذه من أمام الجريدة. وقف نضال ينتظر حتى لاحت له السيارة من بداية الطريق، توقفت أمامه فأسرع إلى داخلها، لكن رصاصة ما استقرت في كتفه فسقط مدرجًا بدماء فوق المقعد الخلفي، ثم انطلقت السيارة عائدة مرة أخرى نحو منزل ليفي.

صوت صرخات مريم يتردد في فضاء الحجرة؛ لا تعلم أهي ألمًا وقهرًا على رحيل حبيبها نضال الذي انقطعت أخباره منذ ثمانية أشهر حتى فقدت الأمل في عودته، خاصة أن كل الشواهد تؤكد ذلك؛ بدءًا من يوسف الذي أخبرها أنه فقد الاتصال به في آخر مرة، والجماعة التي خصصت لها مبلغًا شهريًا كتعويض لها على رحيل زوجها فداءً للوطن، أم تصرخ من ألم المخاض الذي هاجمها؟

كانت والدة نضال التي ترتدي الأسود منذ رحيل ولدها تجلس جوار القابلة العجوز، التي كانت تحث مريم على الصمود والضغط نحو الأسفل، بينما تقف زهرة أمام باب الحجرة تبكي.

هيا يا بنيتي ساعديني.. قالت القابلة.

ادفعي يا مريم.. ساعدي ولدكِ.. ردت والدة نضال.

كتمت مريم صرخاتها وهي تدفع نحو الأسفل، حتى تشابكت صرخاتها مع صرخات طفلها القادم للحياة. لم يكن المخاض سهلاً عليها، لكن كل آلامه تبددت حين ناولتها القابلة طفلها فاحتضنته.

ماذا ستسمينه؟.. سألتها القابلة.

سأسميه نضال.. ردت مريم.

ثم انخرطت في نشيج خافت شاركها فيه كل مَن بالدار.

مرت الأيام ثقيلة الوطأة على مريم، ورؤية طفلها أمام عينيها هي ما كان يهون عليها. المعونة الشهرية التي كانت تجود بها الجماعة لم تعد تكفي لسد الاحتياجات الأساسية لطفلها من حليب وحفاضات، فقررت مريم أن تبحث عن عمل يعاونها كمصدر دخل إضافي؛ الأمر الذي اعترضت عليه والدة نضال، لكنها لم تملك حق الرفض فهي أدرى بالظروف. ودت الأم لو استطاعت الخروج للعمل بدلاً منها، لكن الأمراض تكالبت عليها بعد رحيل ولدها الغالي.

لم يكن أمام مريم من سبيل سوى طلب المساعدة من يوسف صديق نضال؛ الشخص الوحيد الذي تعرفه من أصدقائه والوحيد الذي يداوم على زيارتهم. وعدها أن يبحث لها عن عمل يناسبها، حتى كان ذات يوم أثناء زيارته لهم وهو يرتشف كوب القهوة ويهدهد نضال الصغير:

لقد وجدت لكِ عملاً لكنكِ قد لا توافقين عليه.. قال يوسف.

ما هو؟.. سألته مريم.

ممم.. مدبرة منزل لدى السيد مراد الحموي.. رد يوسف.

تقصد خادمة؟.. قالت والدة نضال وهي تصك صدرها.

لا، ليس هكذا. السيد مراد يعيش وحيداً، كما أنه معظم الوقت بالخارج، ومدبرة المنزل الخاصة به تزوجت ورحلت، فهو يبحث عن غيرها لتدير له شؤون المنزل.

لا يا يوسف، لم أنتظر منك هذا! أترضى لزوجة صديقك أن تعمل خادمة عند رجل أعزب؟.. قالت والدة نضال بعتاب.

حاشا لله يا خالة، مريم ستعمل فترة النهار فقط وسترحل حتى قبل أن يعود السيد مراد الحموي، كما أنه في معظم أوقاته يبيت بالخارج؛ أي أنها ستكون حرة وكأنها مالكة المنزل. فماذا تقولين يا أم نضال الصغير؟

صمتت مريم بعض الوقت ثم قالت: موافقة.

نظرت لها والدة نضال بعتاب فأردفت مريم: لا تخشي عليّ من شيء يا أمي، فأنا قادرة على حماية نفسي.

لم ترد عليها والدة نضال، فهي تعلم جيداً أنهم بحاجة لهذا العمل فما باليد حيلة.

حسناً، سأحدث السيد مراد وسأجلب لكِ نسخة من مفتاح المنزل غداً.. قال يوسف ثم قبل نضال الصغير قبل أن يناوله لمريم ويرحل.

باليوم التالي تسلمت مريم المفاتيح الخاصة بشقة السيد مراد الحموي القاطنة بحي الأرمن بالقدس الشرقية. ودعت مريم صغيرها بعد أن أودعته مع جدته، ثم غادرت الدار في أول يوم لها بالعمل. استخدمت حافلتين حتى وصلت إلى الحي. كانت الشقة في بناية قديمة مكونة من خمسة طوابق، وتقع الشقة في الطابق الثالث. وضعت مريم المفتاح في رتاج الباب ثم دلفت إلى الداخل. كانت الشقة مصممة على الطراز العثماني، واسعة وبها أربع غرف: غرفة معيشة وغرفتان للنوم وغرفة مكتب. بدأت مريم عملها بتوضيب المكان الذي يبدو أنه لم يدخله أحد منذ فترة، فالأتربة في كل مكان والأثاث مبعثر، كما توجد زجاجات خمر فارغة في كل زاوية. تساءلت مريم: لِمَ يعيش رجل مثل مراد الحموي وحيداً حتى هذا العمر؟ ثم طردت الفكرة من رأسها قائلة: مالي أنا به؟ أنا هنا للعمل فقط.

شرعت مريم بالتنظيف حتى وصلت إلى حجرة النوم، وضبت الفراش ثم تناولت صورة داخل إطار خشبي كانت واقعة أرضاً على وجهها. تأملتها جيداً؛ كانت صورة للسيد مراد الحموي وهو شاب برفقة فتاة جميلة قصيرة القامة ترتدي قلادة بنهايتها صليب صغير، مكتوب بأسفلها بخط منمق (جامعة القاهرة ١٩٨٤). شعرت مريم أنها رأت هذه السيدة من قبل، لكن أين وكيف؟ لا تتذكر. شعرت بالألم يطرق رأسها، وبقطرات الحليب الدافئة تبلل صدرها، فتذكرت طفلها الحبيب.

مرت الأيام على مريم، في كل يوم تستيقظ باكرًا تطعم طفلها ثم تغادر الدار في طريقها للعمل. طوال الأيام الماضية لم ترَ السيد مراد ولو مرة واحدة. في بعض الأيام كانت تجد زجاجات خمر وآثار وجود أنثى كانت هنا في الليلة السابقة. كانت تؤدي عملها وتعيد ترتيب كل شيء ثم تطهو الطعام وتجلس حتى الساعة الثانية ظهرًا وترحل عائدة للدار.

اعتادت مريم في الوقت الذي تجد فيه نفسها متفرغة أن تعبث قليلاً بمحتويات المكتب، حيث كان السيد مراد يمتلك مكتبة كبيرة تحوي الكثير من الكتب ذات الطابع السياسي مثل: "لعبة الأمم"، "الفوضى الخلاقة"، "أحجار على رقعة الشطرنج"، و"قواعد السطوة". كانت مريم تنتقي كل يوم كتابًا تجلس فوق كرسي المكتب وتقرأ فيه، حتى كان ذات يوم بينما كانت تجلس بغرفة المكتب تقرأ في كتاب "إسرائيل والعرب" للدكتور شفيق ناظم الغبرا، دون أن تشعر بأن الوقت مر وتخطت الساعة الثالثة، سمعت صوت أقدام أحدهم تقترب من الغرفة. ارتبكت وتركت الكتاب فوق الطاولة ثم أسرعت تختبئ خلف ستائر النافذة الثقيلة.

دلف السيد مراد الحموي إلى غرفة المكتب وتوجه مباشرة نحو مكتبه، جلس ثم وضع حافظة أوراق بداخلها بضعة أوراق قليلة، فك

أزرار قميصه العلوية ثم أخرج هاتفه الجوال الذي كان يصدح بنغمة مميزة (مقطع من أغنية ليالينا لوردة).

الأوراق أصبحت بحوزتي، غدًا سأسلمها لك، بها قائمة بأسماء أعضاء حركة "مناضلون".. قال السيد مراد ثم سكت قليلاً وأردف: نعم، الجماعة تأمر بتصفيتهم في أقرب وقت ممكن، فالنظام أصبح يشكو منهم مؤخرًا، خاصة بعد مسألة تصفية نضال الغزاوي.

شهقت مريم بعد الذي سمعته، لكنها سرعان ما وضعت يدها على فمها تكتم انفعالها. أنهى السيد مراد الحموي اتصاله ثم أجرى اتصالاً آخر مقتضباً:

حسناً، نتقابل هناك بعد نصف ساعة.. قالها ثم أغلق الخط وغادر المكان تاركاً الحافظة فوق طاولة المكتب.

خرجت مريم من مخبئها والدموع تتساقط من مقلتيها؛ لقد كان السيد مراد وراء كل ما حدث لنضال ويعقوب والجميع! كيف استطاع أن يخدعهم جميعاً؟ كيف للمرء أن يكون هكذا كالحرباء المتلونة؟ فكرت كم من شخص راح ضحية أمثال مراد الحموي ممن باعوا قضية الوطن بثمن بخس. أقسمت مريم حينها أن تنتقم لروح زوجها وتفضحه، فحملت الأوراق وأسرعت مغادرة.

عرجت وهي في طريقها على إحدى كبائن الهاتف العامة، وقامت بالاتصال بيوسف.

ألو.. من معي؟.. سأل يوسف.

أنا مريم يا يوسف، لابد أن أقابلك الآن، هناك أمر هام أود إعلامك به.. ردت عليه.

هل نضال الصغير بخير؟.. سألها.

نضال بخير، الأمر بعيد عن الدار.

ألا نستطيع تأجيل المقابلة وسأمر عليكِ بعد العشاء في الدار؟

الأمر لا يتحمل التأخير، الأمر يتعلق بمقتل نضال والجماعة.

لا أفهم شيئاً مما تقولين يا مريم.

لا أستطيع الشرح لك بالهاتف، لكن أستطيع أن أخبرك أن بحوزتي أوراقاً خاصة بالسيد مراد توضح حقيقة تعامله مع المخابرات الإسرائيلية.

حسناً يا مريم، أين أنتِ الآن؟

أنا... قالت مريم ثم نظرت خارج الكبينة فسألت أحد المارة عن اسم المكان ثم أردفت: بشارع عرفات أمام كبينة الهاتف الرئيسية في أول الشارع.

نصف ساعة وسأكون أمامكِ، لا تتحركي من هناك.. قال يوسف ثم أغلق الخط.

وقفت مريم تستعيد كل الأحداث الماضية، يتأجج بداخلها بركان ثائر من الغضب والرغبة في الانتقام. مرت عشرون دقيقة منذ أن أنهت مكالمتها بيوسف وهي تحتمي من أشعة الشمس الحارقة على جانب الطريق بجوار الكبينة، حتى توقفت سيارة أمامها. أطل يوسف برأسه من نافذة السيارة:

هيا يا مريم اركبي بسرعة.. قال يوسف.

نهضت مريم مسرعة ثم صعدت إلى السيارة بجوار يوسف، قبل أن يغلق النوافذ وينطلق.

ما الأمر يا مريم؟ لقد تركت عملي وجئت إليكِ مسرعاً دون أن أفهم شيئاً.. سألها يوسف.

هذه الأوراق ستوضح لك كل شيء، إنها أوراق بها قائمة بأسماء قيادات الجماعة التي ستنفذ بها المخابرات الإسرائيلية عمليات اغتيال كما فعلوا مع نضال.. ردت عليه.

وما الذي يؤكد لك أن نضال تم اغتياله؟

سمعته بأذني يخبر أحدهم عبر الهاتف بذلك.

مَن هو؟

مراد الحموي.

قصت مريم على يوسف ما حدث في شقة مراد الحموي بينما تتناول عبوة العصير التي أعطاها لها يوسف لتبل ريقها الجاف. بعد قليل، شعرت مريم بدوار يكتنف رأسها، وجفونها بدأت تتثاقل، حاولت أن تقول شيئاً لكن لسانها صار ثقيلاً للغاية؛ قرص واحد من "الزولام" كان كفيلاً بأن يجعلها تغفو كطفلة في المهد.

ظلام وصوت نعال تحتك بأرضية أسمنتية، برودة تتخلل أوصالها، وطرقات ألم تدق رأسها بين الحين والآخر. لا تدري كم من الوقت مر عليها وهي بهذا المكان وتلك الوضعية، حيث كانت مقيدة الأطراف؛ ذراعاها خلف الكرسي المعدني وساقاها من الأسفل بأصفاد معدنية.

كيف حالك الآن؟.. سألها أحدهم، حيث كان يجلس أمامها فوق كرسي آخر؛ ضخم الجثة، كبير البطن، يرتدي الزي العسكري الإسرائيلي.

تذكرت مريم آخر شيء حدث؛ كيف فقدت وعيها حين كانت في العربة مع يوسف.

يوسف.. قالت مريم، فابتسم الرجل قائلاً:

آه.. جو، صراحة كان عميلاً جيداً، لم نحتج الكثير من المجهود لإقناعه بالعمل لصالحنا، بضع أوراق خضراء كانت كفيلة بأن تسلب لُب عقله.

ذاك النذل الخسيس.. قالت مريم بغضب.

أنتم هكذا أيها العرب، من السهل السيطرة عليكم، يستطيع المرء أن يتحكم بكم كعرائس الماريونت. هل سمعتِ من قبل عن جاسوس إسرائيلي يعمل لصالح فلسطين؟ بالطبع لا.

مَن تتحدث عنهم لا يمتون للعروبة بصلة، هم مجرد مخلفات بشرية تلتصق بكم.

هل ترين هذا العالم؟ نحن من نحكمه، كقطع الشطرنج نضع من نريد ونتخلص ممن نريد، حتى عندما تظنون أنكم ربحتم جولة فنحن من أردنا ذلك. الأمر أكبر من قدرتكم على الاستيعاب، لكن ما أستطيع قوله إنكم أيها الشعوب العربية تحكمكم دمى خشبية صنعتها أيدينا نحركها كيفما نشاء.

تلك الدمى التي تتحدث عنها ستتحطم عما قريب، كما سيمحى وجودكم عاجلاً أم آجلاً يا أحفاد القردة والخنازير.

شعر الرجل بالغضب واعتلت القسوة قسمات وجهه، فنهض دانيًا منها ثم قبض على عنقها قائلاً:

سأريكِ مَن هم أحفاد القردة والخنازير.. ثم دفعها فسقطت أرضاً بالكرسي. سار نحو الباب الحديدي، تحدث مع أحدهم بالخارج، ثم رحل بعد أن دلف جنديان مفتولا العضلات إلى الداخل.

شعرت مريم بالذعر حين رأتهما؛ اقترب واحد منهما فأقام الكرسي المقيد به جسدها، بينما وقف الآخر أمامها جامداً كالصنم قاسي الملامح. لحظات من الترقب المميت شعرت بها مريم قبل أن يصفعها بكل قوته، فالتف عنقها نحو اليسار وتناثرت خصلات شعرها فوق صفحة وجهها، ثم قبض على خصلات شعرها يجذبها نحو الأعلى. توالت الصفعات تمزق وجهها حتى سال خيط من الدماء بجانب فمها. شعر الجندي بالتعب فتراجع قليلاً للوراء بينما حل الآخر مكانه؛ فك وثاق قدميها وذراعيها فسقطت أرضاً، جرها من شعرها نحو نهاية الحجرة ثم أجلسها فوق كرسي آخر، تناول قيداً حديدياً قيد ذراعيها به، ثم مرر القيد عبر خطاف معلق بسقف الحجرة وصار يجذبه نحو الجهة الأخرى، فارتفع جسدها حتى تخطت أقدامها الأرض وأصبحت معلقة في فضاء الحجرة. ثبت الجندي القيد ثم وقف أمام جسدها المعلق كالذبيحة، وشرع يمزق الثياب عن جسدها دون أن تقوى على الصراخ؛ كانت شبه فاقدة للوعي لكنها تشعر بكل شيء دون أن تملك الطاقة للبوح بألمها الطاغي.

أصبحت عارية كما ولدتها أمها. تناول الجندي الآخر عصا جلدية سوداء اللون لامعة، عبث بجسدها خاصة عند مناطق العفة به، ثم شرع بجلدها بكل ما أوتي من قوة حتى ألمته ذراعاه. كان جسد مريم ممتلئاً بالأخاديد الدامية حين فك الجندي الآخر وثاقها، فسقطت كجثة بلا روح.

حجرة واسعة على الطراز الأوروبي يغلب عليها اللون الأبيض، حوائطها مصممة بتقنية عازلة للصوت، بها مكتب فخم للغاية ومكتبة تحتل حائطاً بالكامل، تضم العديد من الكتب السياسية والدينية، حتى إنك تجد بها كافة الكتب السماوية المنزلة وتلك التي حرفها البشر.

جلس أحدهم خلف طاولة المكتب فوق كرسي جلدي وثير يرتدي بدلة عسكرية، وبجواره نسخة مصغرة من علم إسرائيل، ومن خلفه على الحائط نجمة داوود.

ما حدث هذه المرة يستحق العقاب، يبدو أنك لم تعد ذا فائدة كما كنت من قبل.. قالها ناحوم حوبي.

كان السيد مراد الحموي يجلس أمامه كتلميذ خائب ينتظر العقاب ويخشاه وهو يضم ساقيه بقوة.

لقد كنت ألتزم بمعايير الأمان، لا أعلم كيف حدث هذا، لكن أعدك ألا يتكرر هذا الخطأ مرة أخرى.. قال مراد.

نحن لن نسمح بحدوثه مرة أخرى على كل حال.. قال ناحوم حوبي بنبرة تهديد صريحة.

أقسم لك أن تكون المرة الأخيرة، فأنا لم أخيب رجاءكم من قبل طوال الخمسة وعشرين عاماً الماضية.

دع الأقسام والأيمان جانباً فنحن لا نعتد بها في عملنا هذا، كما أنك لم تفعل شيئاً دون مقابل؛ كل ما أنت فيه من مكانة اجتماعية ورفاهية لا يملكها أحد بوضعك هو بفضلنا نحن.

وأنا لا أنكر هذا.

نحن أولياء نعمتك يا مراد، لا تنسَ ذلك، ولا تنسَ أن أمرك بيدنا، إن سخطنا عليك فلن تجد من يرحمك.

بالطبع يا سيدي.. قال مراد ككلب وفيّ.

تناول ناحوم سماعة الهاتف الموضوعة أمامه فوق الطاولة قائلاً:

دعه يدخل.. ثم أعاد السماعة مرة أخرى.

لحظات ودلف إلى داخل الحجرة يوسف، صديق نضال الذي يعمل بجريدة "الصوت الحر". تتبعه مراد الحموي بنظره حتى استقر أمامه واقفاً.

اجلس يا يوسف.. قال ناحوم.

جلس يوسف أمام مراد الحموي مبتهجاً.

لولا يوسف لكنت الآن في عداد الموتى يا مراد، فهو من أنقذك من مصير مظلم، عليك أن تشكره.. قال ناحوم.

نظر مراد نحو يوسف نظرة احتقار واضحة ثم قال بصعوبة: شكرًا يا يوسف.

والآن، سلم كل أوراقك إلى يوسف الذي سيكون رئيساً لتحرير جريدة "الصوت الحر" من الآن.. قال ناحوم.

شعر مراد الحموي بالدماء تغلي في عروقه فانتفض واقفاً كثور هائج:

كيف ذلك؟ تود مني أن أتنازل عن الكيان الذي بنيته طوال هذه الأعوام لذلك الجرذ الحقير؟

مراد.. اجلس.. قالها ناحوم بلهجة آمرة، فجلس مراد صاغراً وهو يشتعل غضباً.

لكن يا سيدي أنا مراد عبدكم المخلص، كيف تفعلون هذا بي؟.. قال مراد بحسرة.

لأنك عبدنا المخلص اكتفينا بهذا الأمر.. والآن ارحل.

سيدي..

ارحل يا مراد، لن أكررها.

نظر مراد نحو يوسف بغضب، فرد عليه يوسف بابتسامة نصر وشماتة، ثم نهض مستسلماً. سار نحو الباب لكنه قبل أن يخرج استوقفه صوت ناحوم قائلاً:

قبل أن تخرج أود أن أخبرك أن هناك هدية تنتظرك بالمنزل، أتمنى أن تنال إعجابك.

همّ مراد أن يسأله عنها لكنه أشار له بالخروج فرضخ له.

خرج مراد الحموي يشعر بالتعاسة، ودّ لو استطاع أن يقتل ناحوم بيديه، أو يحمل سلاحاً ويمطر رصاصاته في رؤوسهم السامة. يعلم جيداً أنه يستحق أكثر من ذلك، وأنه لم يشعر لمرة واحدة منذ أن عمل معهم أنه إنسان يستحق الاحترام، بل دوماً ما يشعر أنه نجس ملطخ بالآثام تطارده كل النظرات؛ بدءاً من نظرات ميرال المحتقرة حين اكتشفت علاقته بالموساد هو وشقيقها، مروراً بنظرة والده التي عرت روحه وكشفت حقيقة أنها روح خبيثة شيطانية قبل أن يقتله حتى لا يفضحه. كيف استطاع أن يتخلى عن ابنته هكذا بكل سهولة دون حتى

أن يحاول الوصول إليها؟ كأنه شعر بضآلة حجمه أمامها وأنه لا يستحق أن يكون أباً، فلم يفكر بالزواج والإنجاب مرة أخرى.

هام على وجهه يطوف بشوارع المدينة، ثم عرج على حانة تجرع بها زجاجتين من الخمر قبل أن يقود السيارة حتى وصل إلى شقته. دلف نحو غرفة النوم مباشرة، استلقى فوق الفراش بكامل سكره وهيئته، تحسس "الكومود" فوجد ملفاً صغيراً. جذبه ناحيته ثم اعتدل قليلاً وأخذ يعبث بمحتوياته.

كان الملف يحوي ورقة كُتب فيها: (عزيزي مراد، شكراً لك على طاعتك العمياء لنا كل تلك السنوات الماضية، اعتبر هذه الهدية مكافأة نهاية خدمة لك). وضع الورقة جانباً ثم قلب في الأوراق الأخرى؛ كانت عبارة عن صور أُخذت لرهف في أماكن مختلفة، مع صور أخرى تجمعها بوالدتها ميرال، وفي نهاية الملف صورة ضوئية لجواز سفرها مكتوب به: "رهف مراد سليمان الحموي".

شعر مراد أن فضاء الغرفة يدور به، أسرع نحو الحمام لكنه أفرغ ما بجوفه أمام بابه وانهار أرضاً. لقد كانت ابنته أمام عينيه طوال الوقت دون أن يشعر بالأبوة تجاهها؛ ابنته التي سلمها للموت بيديه كما سلم زوجها من قبل.

أي شيطان أنا؟ أي شياطين هم؟ أنا لا أستحق الحياة بعد الآن.. قال مراد محدثاً نفسه، ثم أردف:

لكن قبل ذلك لابد أن أحصد أرواحهم.

نهض متوجهاً نحو غرفة النوم مرة أخرى، أخرج سلاحه الشخصي من الخزانة الخاصة به، تأكد من أنه محشو بالرصاص بالكامل، ثم غادر الشقة عازماً على أن يحتفظ بالرصاصة الأخيرة لنفسه.

في اليوم التالي، مانشيت عريض في كل الصحف التي تصدر داخل فلسطين وبعض شاشات التلفاز: (العثور على جثة مسؤول صحفي كبير في ظروف غامضة بعد أن أطلق النار على نفسه داخل سيارته بإحدى شوارع القدس).

كان قلب والدة نضال يعتصر ألماً وخوفاً على مصير مريم المجهول؛ شهر كامل منذ اختفائها، خرجت ولم تعد. طفلها لا يكف عن البكاء حتى بعد أن تطوعت واحدة من الجارات اللاتي وضعن حديثاً بإرضاع الصغير. علمت من أحدهم أنه تم العثور على جثة يوسف متفحمة داخل سيارته على الطريق الصحراوي؛ حزنت عليه وعلى نهايته، ولم تكن تعلم أنه مَن سلم ولدها للموت.

رائحة البول النفاذة تعبق بالمكان، الرطوبة تنخر في عظام جسدها الهزيل، الجوع يعتصر أمعاءها، والظلام المسيطر على المكان ضيَّع معالم الوقت والزمان. الكدمات تملأ جسدها، وثوبها الذي يكشف أكثر مما يستر لم يعد مصدر دفء. يومان دون طعام أو شراب وكأن مَن بالخارج تناسوا أن هناك روحاً تسكن تلك الزنزانة الضيقة. تحاملت على ذراعها المعروقة ثم جلست القرفصاء لقضاء حاجتها، ثم عادت مرة أخرى متكومة على نفسها بركن الزنزانة. كانت تهرب من آلامها بالنوم، حتى تلك الهبة خاصمتها فلم تعد تحلم بطفلها كما كانت في أيامها الأولى هنا بسجن "نفحة". سمعت صوت باب الزنزانة يفتح لأول مرة منذ يومين، وضعت يدها فوق عينيها تتحاشى الضوء المؤلم كأنه ألف شمس حارقة. سرعان ما سمعت الباب يغلق مرة أخرى ووقع أقدام حافية تقترب، ثم شعرت بيد أحدهم تلمس كتفها، فانتفضت مذعورة:

لا.. لا.. لا.. أرجوك أبتعد عني.. قالت بذعر وهي تلوح بيديها هنا وهناك.

لا تخافي.. أنا لست منهم.

كان صوتاً أنثوياً رقيقاً دافئاً. هدأت مريم قليلاً ثم نظرت نحو مصدر الصوت؛ كانت فتاة سمراء ذات شعر مجعد هزيلة الجسد أيضاً، ترتدي بنطالاً ممزقاً وقميصاً رثاً، يبدو عليها آثار التعذيب.

مَن أنتِ؟.. سألتها مريم.

اسمي زينب.. وأنتِ؟

مريم.. ما الذي أتى بكِ إلى هنا؟

هو نفس السبب الذي أتى بكِ.

منذ متى وأنتِ هنا؟

منذ تسعة أشهر.. وأنتِ؟

لا أعلم، لم أعد أعرف الوقت.

ماذا فعلوا بكِ هؤلاء الملاعين؟

كل ما يمكنكِ أن تتخيليه، حتى إنني تمنيت الموت، لكن أملي في أن أعود لطفلي هو ما يجعلني أتمسك بالحياة.

هل لديكِ طفل؟

نعم، اسمه نضال، حين تركته كان عمره ستة أشهر فقط.

"يا بختك"..

لماذا؟

لديكِ مَن تتمسكين بالحياة من أجله.

وماذا عنكِ؟

مَن كنت أحب الحياة من أجله رحل، حتى مَن ظننت أن قلبي بدأ يدق له كنتُ السبب في تدمير حياته. يبدو أنني تعيسة الحظ و"وجه بومة".. قالت زينب وهي تضحك بحرقة.

توطدت العلاقة بين مريم وزينب لكسر وقع الوقت البطيء المؤلم وكنوع من العلاج النفسي، حتى ذات مرة حكت مريم قصتها لزينب منذ أن وعت على نفسها بدار الشيخ بدر الغزاوي.

صدقيني، للآن لا علم لي بحياتي قبل تلك الحادثة، لا أتذكر شيئاً من الماضي، حتى إنه لم يعد يهمني البحث عنه.. قالت مريم، ثم أردفت: وأنتِ، ما هي قصتكِ؟

كانت رأس زينب في عالم آخر تربط الخيوط ببعضها البعض حتى وضحت لها الصورة كاملة: (رهف هي مريم، ومريم هي رهف! يااااه على الحياة.. يترك معتز كل حياته وراءه ليبحث عن رهف فينتهي به المصير سجيناً هنا، بينه وبين مَن يحب بضعة أمتار، بينما مَن يبحث عنها لم تعد تتذكر وُأحبت غيره! أي عبث هذا الذي تفعله بنا الحياة؟).

زينب.. أين ذهبتِ؟.. قالت مريم لتنتشلها من دوامة أفكارها.

نعم يا رهف.. أقصد يا مريم.

ما الذي شرد بكِ هكذا؟

لا شيء، تأثرتُ فقط بقصتكِ.

ألن تحكي لي قصتكِ أيضاً؟

آه.. بالطبع.

حكت زينب لمريم قصة حياتها وحبها لمصطفى، لكنها لم تتطرق لقصتها مع معتز، ولا تدري أهي مخطئة أم محقة بإخفائها، لكنها لم تنكر شعورها الأنثوي بالغيرة. ثم ماذا ستقول لها؟ أتقول لها: إنكِ كنتِ مخطوبة لشاب ثم فقدتِ الذاكرة في حادث حين أتيتِ لتبحثي عن والدكِ، فأنقذكِ شاب آخر فأحببتِه وتزوجتِه بل وأنجبتِ منه، بينما خطيبكِ يقبع داخل إحدى الزنازين هنا بعد أن أحببتُه وتبادلنا الحب أثناء بحثه عنكِ؟ أي هراء هذا!

في اليوم الحادي عشر لوجود زينب في الزنزانة رفقة مريم، قررت أن تنفذ خطتها. توجهت نحو باب الزنزانة ثم طرقت عليه حتى أطل الحارس من شراعته، تبادلا حديثاً مختصراً ثم أغلق الشراعة.

ماذا قلتِ له؟.. سألتها مريم.

انتظري قليلاً.. ردت عليها زينب.

لحظات وسُمع صوت فتح باب الزنزانة، ثم أطل الحارس برأسه مشيراً بيده أن: "هيا أسرعا". أشارت زينب بدورها إلى مريم التي نهضت مقتربة منها. غادرتا الزنزانة ثم سرتا خلف الحارس في الطرقة التي بين الزنازين.

إلى أين نحن ذاهبتان؟.. سألت مريم، فنظر لها الحارس بغضب.

ستعرفين كل شيء بعد قليل.. ردت زينب بصوت خافت.

هبطتا سلماً حجرياً نحو القبو ثم عرجتا يساراً حتى توقفتا أمام حجرة دورة المياه. طرق الحارس الباب مرة واحدة ثم أدار المقبض وفتح

الباب، أفسح المجال لهما للدخول ثم أغلق الباب خلفهما. وقفت مريم في دورة المياه لا تفهم ما يدور حولها.

إن كنتِ ترغبين بالاستحمام فأسرعي حتى أعود.. قالت لها زينب.

انتظري.. تعودين من أين؟.. سألتها مريم بذعر وهي تقبض على ذراعها.

لا تخافي.. سأكون هنا بجواركِ.. ردت زينب ثم أفلتت ذراعها متوجهة نحو آخر دورة مياه بالحجرة.

شعرت مريم برغبة ملحة في قضاء حاجتها فدلفت إلى دورة المياه المجاورة. تناهى لسمعها صوت تأوهات مكتومة، فانتهت سريعاً ثم غادرت بعد أن عدلت عن فكرة استحمامها. جلست في ركن الحجرة جوار أحواض المياه الصدئة حتى خرجت زينب وهي تعدل هندامها، ثم تتناول سيجارة من ذلك الجندي الشاب الذي خرج في أثرها يحكم قيد حزام بنطاله الجلدي. ابتسم لزينب ثم ناولها سيجارة أشعلتها بقداحته حين استقرت بين شفتيها.

غادر الجندي الحجرة، فاقتربت مريم من زينب التي كانت تتكئ على الحائط تتشابك قدماها بينما يميل نصفها العلوي للخلف قليلاً.

ألم يحن الوقت لتخبريني ما الذي يحدث هنا؟.. سألتها مريم بصوت خافت وبنفاد صبر.

ألا ترغبين بمغادرة هذا المستنقع القذر ورؤية طفلكِ؟.. ردت زينب وهي تنفث الدخان في فضاء الحجرة دون اكتراث.

بالطبع، اليوم قبل الغد، ولكن كيف؟

سأخبركِ.

أطل الحارس من خلف الباب قائلاً: هيا.

عادتنا إلى الزنزانة مرة أخرى، فأخبرت زينب مريم أنها ستؤمن لها الهروب من السجن بمساعدة الجندي "جايكوب" الذي رأته في دورة المياه.

بعد مرور أسبوع كامل، شرحت فيه زينب خطة هروب مريم التي أعدتها لها كل ليلة، حتى جاء يوم التنفيذ.

سارت مريم خلف الحارس بعد أن ودعت زينب التي احتضنتها طويلاً قائلة:

سأشتاق لكِ يا فتاة، قبّلي لي نضال الصغير.

أنا أيضاً سأشتاق لكِ، شكراً لكِ على كل ما فعلتِه من أجلي.. ردت مريم التي ذرفت دموعها، فشعرت زينب أن دموعها على وشك الهطول، وهي تمقت نفسها في هذه المواقف، فأبعدت مريم عنها برفق قائلة: هيا اذهبي، فلا نملك الكثير من الوقت.

رحلت مريم وغابت عن أعين زينب التي حدثت نفسها قائلة: "سامحيني يا رهف".

رافق الجندي "جايكوب" مريم حتى توقفا عند حجرة ضيقة تفوح منها رائحة خانقة تشبه رائحة الجيفة، لم تستطع مريم تحمل بشاعة الرائحة فأفرغت ما في جوفها. نظر لها الجندي بتقزز، ثم فتح باب الحجرة وطلب منها أن تظل هناك حتى يأتي العاملون، ثم أغلق الباب خلفها ورحل.

كانت الحجرة عبارة عن مكان تُكدس فيه جثث السجناء والمعتقلين الذين فاضت أرواحهم تحت وطأة التعذيب، قبل أن يأتي عمال يحملون تلك الجثث لدفنها في الصحراء. أخذت مريم تتخطى تلك الأجساد بحذر في ظلام الحجرة، حتى ارتطمت قدمها بجسد أحدهم فسقطت فوقه. همت أن تنهض، لكنها توقفت حين سمعت صوت أنين؛ فشعرت بالخوف ثم تمالكت أعصابها.

مَن هنا؟.. سألت بقلق. تعاظم صوت الأنين فحاولت الوصول إلى مصدره دون جدوى.

هل من أحد هنا؟.. عاودت السؤال.

أ.. أنا.. قال صاحب الصوت بوهن شديد.

هل أنت حي؟.. سألته، ثم شعرت بسذاجة سؤالها.

رشفة ماء.. قالها بصعوبة.

نظرت مريم حولها ثم أرهفت السمع حتى سمعت صوت ارتطام قطرات ماء بأرضية الحجرة. زحفت على أربع نحو مصدر الصوت متلافية ملمس الأجساد المنتفخة، حتى وصلت إلى صنبور ماء عاطل كان بلا مقبض. ضمت مريم راحتي يديها تحته حتى امتلأتا، ثم عادت نحو مصدر الأنين الذي أصبح أكثر خفوتًا عما قبل.

تساقطت قطرات الماء متسللة من بين أصابعها حتى لم يتبقَّ سوى القليل، تحسست الجسد بظهر يدها حتى وصلت إلى الرأس، شعرت بملمس الشفاه فتركت قطرات الماء العطنة تتساقط فوق الشفاه اليابسة.

شكراً لكِ.. قالها.

لا عليك، ولكن ما الذي أتى بك إلى هنا بين تلك الجثث؟

يبدو أنهم ظنوا أني مت؛ فقد تعرضت لتعذيب شديد فقدت الوعي على إثره.

يبدو أنك مصري من لهجتك..

نعم، أنا من القاهرة.

جيد، يبدو أن الرب يحبك.. قالت مريم ثم شرحت له الخطة التي تقضي بهروبها نحو الأراضي المصرية برفقة طفلها، وأردفت: تستطيع أن تأتي معي، شرط أن تصمد ولا تتحدث مهما رأيت.

حاول هو الضحك لكن انتابته موجة سعال أخبرها من خلالها:

من ناحية الرؤية فلا تقلقي، لقد فقدت بصري هنا كما فقدت الكثير.

شعرت مريم بالشفقة عليه وقالت: لا تقلق لن أتركك، ما اسمك؟

معتز.. أجابها.

وأنا مريم، أم نضال.. ردت عليه قبل أن تسمع صوت صرير الباب، فاستلقت بجواره بلا حراك.

دلف عاملان إلى داخل الحجرة وشرعا يتعاونان على حمل الجثث، ثم نقلها إلى قلب شاحنة "نصف نقل" مغلقة كأنها تابوت كبير متنقل. توالت حركة النقل حتى جاء الدور على معتز، الذي كان جرح بطنه ما زال ينزف بعد أن تعرض لوصلة تعذيب جديدة منذ أن حُمل إلى سجن "النفحة"؛ لا يدري أي جرم اقترفه سوى أنه دخل البلاد بطريقة غير مشروعة.

حاول كثيراً أن يبرر الأمر أمام المحقق في تلك الحجرة الكئيبة القاتمة:

ألن تعترف عن باقي زملائك من المصريين؟.. سأله المحقق.

ليس لدي أدنى إجابة عما تقول، لقد أخبرتك بكل شيء، أنا هنا للبحث عن رهف فقط، وأي أمر آخر لا علاقة لي به.. رد عليه وهو معصوب العينين، عاري الصدر، مقيد الذراعين خلف الكرسي.

الشيخ نوري.. لقد أمسكنا بمربط الفرس! ما علاقتك بالشيخ نوري وتلك المدعوة زينب؟

لا توجد علاقة؛ الشيخ نوري هو الشخص الذي كان يساعدني في البحث عن رهف، أما زينب فلم تكن سوى مالكة "اللوكاندة" التي أقمتُ بها.

لكنها اعترفت أنك كنت واحداً من المجموعة التي كان يديرها الشيخ نوري.. قال له المحقق كاذباً ليدفعه للاعتراف.

كاذبة!.. قال معتز منفعلًا، ثم أردف: إن كانت قالت هذا، فالحقيقة هي ما أخبرتك بها وليس عندي غيرها مهما فعلت.

ضرب المحقق بيده فوق الطاولة ثم نهض: حسناً يا سيد معتز، يبدو أن إقامتك هنا ستطول.. نعدك بخدمة مميزة.

غادر المحقق وقدم شخص آخر فك وثاقه، ثم دفع بذراعه نحو الخارج. كان صوت صرخات وأنين المعتقلين يتردد في أذن معتز وهو يسير نحو المجهول. دُفع بجسد معتز داخل زنزانة ضيقة رطبة، كان منهكاً بعد وصلة تعذيب جُرد فيها من ثيابه وعُلق كالذبيحة، حيث ثُبتت أسلاك كهربائية بجسده، ومرروا تياراً عالياً جعل جسده

ينتفض بتشنجات قوية برزت لها عروقه. ثم جاء آخر بهراوة خشبية شائكة وشرع يضربه بها، ولم يكن يملك معتز رفاهية التعبير عن الألم؛ فكل ما كان يدور بخلده هو تلك العتمة التي غلفت عينيه رغم أنهما مفتوحتا الجفون.

أغلق العاملان باب الشاحنة وانطلقت مغادرة أسوار المعتقل.

معتز، أين أنت؟.. قالت مريم بخفوت، فلم يصلها رد سوى أنين خافت. اقتربت منه ودنت من وجهه؛ كانت أنفاسه شحيحة ووجهه بارداً.

معتز، اصمد أرجوك، لقد خرجنا.. لم يبقَ إلا القليل ونصبح أحراراً.

شعرت مريم بيد معتز تدنو من يدها قابضة على شيء ما.

ماذا تريد؟.. سألته، فأشار لها أن تقترب. وضعت أذنها بالقرب من شفتيه.

خذي هذه.. لقد كانت أمانة من حبيبتي، وعدتني أن تستردها مني حين تعود.. الشيء الوحيد الذي احتفظتُ به هناك، لكن يبدو أنها لن تعود، وأنا أيضاً.. قالها بصوت متحشرج.

نظرت مريم ليده فوجدت بداخلها قلادة ذهبية على هيئة مصحف صغير.

لا تتحدث كثيراً، أنت فقط متعب.. أعدك أن تبقى حتى تعطيها لها بنفسك يا معتز، أعدك بذلك.

لم يجبها، وسقطت يده فوق يدها. قبضت مريم على القلادة وقربتها من قلبها قبل أن تضعها حول عنقها وهي تبكي.

لم تدرِ كم من الوقت مر داخل الشاحنة حتى سمعت صوت بابها يفتح؛ أطل منه الضابط جايكوب ومن خلفه والدة نضال تحمل نضال الصغير. تعثرت مريم أكثر من مرة وهي تركض نحو طفلها، احتضنته واحتضنت والدة نضال طويلاً.

اشتقت لك يا طفلي.. اشتقت لأنفاسك ورائحتك.. قالت مريم وهي تضم صغيرها.

ما الذي فعلوه بكِ يا ابنتي؟.. سألتها والدة نضال بجزع من مظهرها المحزن.

لا عليكِ يا أمي، لقد مر كل شيء، يكفي أن طفلي معي.

هيا، لا يوجد وقت.. قال الضابط جايكوب الذي كان يقف جوار عربة أخرى برفقة رجل يرتدي الزي الفلسطيني. احتضنت والدة نضال مريم مرة أخرى وناولتها حقيبة ملابس متوسطة:

هذه بعض الثياب لكِ ولنضال، وبعض الطعام.. سأشتاق لكِ وللصغير، لكن الاشتياق لن يطول، فقد وعدني الشيخ مصعب أن يلحقنا بكما في أقرب وقت.

سأنتظركما، قبّلي لي زهرة.. ردت مريم.

حملت مريم الحقيبة وصعدت إلى العربة التي ستحملها نحو فصل آخر من حياتها، لا تملك فيه من الزاد سوى شيئين: نضال الصغير، وقلادة ذهبية.

فوق جبل "مكاور" بتلك القرية الصغيرة على الحدود الفلسطينية الأردنية، كان يقف بجسده الغض وقسمات وجهه الوسيمة؛ اليوم

يكمل عامه الثامن. كان يقف فوق قمة الجبل على أطراف أصابعه يبحث عن شيء ما، بينما تقترب منه أمه بحذر:

أمسكت بك أيها اللص الصغير.. قالتها وهي تحمله من الخلف فضحك مداعباً إياها.

ما الذي تفعله هنا يا نضال؟

كنت أحاول رؤية "القبة" يا أمي كما ترينها.. رد عليها.

أود أن تراها أيها البطل.. هيا، اصعد على كتفي.. عاونته على الصعود حتى استقرت قدماه فوق كتفيها.

لقد رأيتها يا أمي!.. قال بفرح طفولي، ثم سأل: ما اسمها يا أمي؟

إنها "قبة الصخرة" يا حبيبي.

لماذا تقفين هنا كل يوم لرؤيتها؟

لأن روحي تهفو لها على الدوام.

يا مريم.. يا نضال!.. نادتهما الجدة.

جدتك تنادينا، يبدو أن الشيخ "مظفر" جاء ليعطيك درس القرآن يا بطل، هيا بنا.

أنزلته من فوق كتفيها وأمسكت بيده الصغيرة وهما يهبطان. قال نضال:

بالأمس حكى لنا الشيخ مظفر قصة السيدة مريم والدة نبي الله عيسى (عليه السلام)، لقد أحببت قصتها كثيراً، وكيف تحملت الآلام من أجل ابنها، ولأنها على اسمكِ.

الأم يا نضال تفعل أي شيء من أجل ابنها..

مَن الذي سماكِ مريم يا أمي؟

والدك.. ردت باختصار.

أمي، أليس اليوم عيد ميلادي؟ إذاً يحق لي أن أتمنى أمنية.. أتمنى أن أقف فوق تلك القبة يوماً ما حين أكبر، مثل أبي.

سيحدث يا صغيري.

والآن، حدثيني عن أبي..

ضغطت مريم برفق على يد طفلها مبتسمة، وإن كانت عبراتها لم تجف بعد.

سجن عسقلان... القدس ٢٠٣٩

كانت أصوات التهليل والتكبير تجتاح شوارع القدس، وأصوات البنادق تختلط بصيحات النصر وهي تقتنص أرواح المعتدين. أعلام النصر تحلق فوق المآذن والبيوت، وطوفان من الأجساد التي ترتدي "الغترة" الفلسطينية يملأ شوارع المدينة العتيقة.

داخل واحد من أبشع المعتقلات، اقتحم نضال الشاب -ذو الأربعة وعشرين ربيعاً- يرتدي الزي العسكري الفلسطيني برفقة شباب آخرين، فتحوا أبواب الزنازين، واندفع السجناء يستشعرون نسائم الحرية.

دفع نضال أحد الأبواب ليجد رجلاً يجلس القرفصاء في إحدى الزوايا كهيكل بشري حي؛ هزيل الجسد، أشعث الرأس، ذو لحية كثة خالطها الشيب. وضع الرجل يده أمام عينيه مع أول شعاع ضوء يراه منذ أعوام، فاقترب منه نضال:

هيا يا والدي، انهض معي.. قال نضال.

إلى أين؟.. قال الرجل بصوت مثقل بأعوام الألم.

لقد انتهى الظلم والطغيان.. لقد حُررت القدس!

نهض الرجل ما إن سمع تلك الكلمات، هرول بأقدام حافية نحو الخارج، رأى فلسطين تنتفض انتفاضتها الحاسمة، وعبق صدره بهوائها الذي حمل رائحة أشجار الزيتون. تلمس الخاتم المستقر في إصبعه، المنقوش عليه اسمها، ومحدثاً نفسه: "ترى هل ما زلتِ تتذكرين أشجار الزيتون يا مريم؟".

تمت

محمود مدين

لمتابعة الكاتب محمود مدين على الفيسبوك:

https://www.facebook.com/profile.php?id=100058543879570

لمتابعة دار أكاديمية الكاتب على الفيس بوك:

دار أكاديمية الكاتب للنشر الإلكتروني

لمتابعة أكاديمية الكاتب على التليجرام وحضور المحاضرات الشهرية المجانية:

أكاديمية الكاتب للتدريب والاستشارات

اللينك:

https://t.me/AlKatebAcademyforTraining2023

@جميع حقوق النشر محفوظة ل

دار أكاديمية الكاتب للنشر الإلكتروني

٠١١١٢٣٥٧٤٧٣